## (4)

## سلسلة العقيدة والتربية

## يصدرها

## المركز الإسلامي العام

## لدعاة التوحيد والسنة بالقاهرة

## الحضارة الإسلامية وجهتها الله

## والحضارة الغربية مركزها الإنسان!

## 

**لواء/ أحمد عبد الوهاب**

**الناشر**

**دار الصحيفة للطباعة والنشر والتوزيع**

**تليفون 3225881/ 012**

**فاكس 2978474**

**بسم الله الرحمن الرحيم**

**مقدمة**

«لا أحد يستفيد من أخطائه»...

مقولة سائدة بين البشر بعد أن اكتسبت من الواقع الشيء الكثير...

«التاريخ يعيد نفسه»..

مقوله أخرى ترتبط بسابقتها أشد الارتباط، وتؤكد حقيقتها كل يوم....

لقد تعود العالم الإسلامي على هوشات أو حالات هياج تجتاح الغرب المسيحي بين الحين والحين، والأمثلة على ذلك كثيرة.

فمند نحو 900 عام، قادت الكنسية الكاثوليكية الحروب الصليبية ضد العالم الإسلامي، وفي الحرب الأولى انطلق نحو 300000 في أغسطس 1096 متجهين عبر القسطنطينية نحو فلسطين، لم يصل منهم إلى القدس عام 1099 إلا عشر هذا العدد وقد هرب مهيج الجماهير آنذاك بطرس الناسك عند شعوره بأول الأخطار!. وكان أول شيء فعلوه عند دخولهم المدينة المقدسة هو ذبح السكان من المسلمين والمسيحيين واليهود. لقد كانت تلك هي الحملة الصليبية الوحيدة التي تعتبر ناجحة - من وجهة النظر العسكرية - أما بقية الحملات فكانت فاشلة بوجه عام. وقد أدى ذلك إلى التوقف عنها نهائيًا عام 1270، بعد نحو قرنين من الزمان. لقد أدينت الحملات الصليبية ضد العالم الإسلامي من كثير من المؤرخين والمفكرين الغربيين. وتتحدث عنها الكنيسة الكاثوليكية حاليًا، على استحياء، تحت دعوى «نسيان المظالم السابقة»...

\*

وفي القرنين السادس عشر والسابع عشر اجتاح أوربا جنون تمثل في إقامة مذابح للنساء بدعوى معاشرتهن للشيطان! وقد أقامت الكنيسة محاكم تفتيش لهذا الغرض، وأصدرت تعليمات تحمل اسم:«مطرقة المتشيطنات» ترسم خطوات تعذيب أولئك البائسات. وقد استمر ذلك الجنون قرابة قرنين من الزمان!

\*

تقول الكاتبة الانجليزية كارن أرمسترونج([[1]](#footnote-1)) في كتابها: إنجيل المرأة، تعليقًا على ذلك الجنون الذي يظهر فجأة بدعوى التخوف من عدو وهمي، ويفعل فعله الخطير في المجتمعات، ثم يخمد بعد أن يكون قد خلف وراءه ضحايا وخرابًا ودمارًا:

«أن أعمال القمع في الحضارة الغربية لا ترى ظاهرة بوضوح إلا في حالات الرعب الفجائي المتعاظم الذي يصاحب تلك الأعمال، ويتفجر من وقت لآخر بعنف مذهل ثم يخمد فجأة، تاركًا كل شخص مرتبكًا ومتحيرًا من ذلك الجنون الوقتي الذي يسيطر على المجتمع.. إن جنون القمع هذا لا يوجه إلى مجرمين حقيقيين في المجتمع، أو ينـزل بمن يناصبونه العداء حقًا، لكنه يصيب ضحايا يعملون كبش فداء لأمراض الأعصاب التي كبتها المجتمع، ولم يكن له من وسيلة للتعبير عنها سوى هذا الأسلوب العنيف اللاعقلاني».

\*

واليوم يطل علينا شيء مثل ذلك الماضي الدموي البغيض.

تقول مجلة الشئون الدولية البريطانية([[2]](#footnote-2)) عن الغرب والإسلام:

«لقد شعر الكثيرون في الغرب بالحاجة إلى اكتشاف تهديد يحل محل التهديد السوفيتي. وبالنسبة لهذا الغرض فإن الإسلام جاهز في المتناول!

فالإسلام مقاوم للعلمنة، وسيطرته على المؤمنين به قوية، وهي أقوى الآن مما كانت قبل مائة سنة مضت. ولذلك فهو - من بين ثقافات الجنوب - والهدف المباشر للحملة الغربية الجديدة، ليس لسبب سوى أنه الثقافة الوحيدة القادرة على توجيه تحد فعلي وحقيقي للمجتمعات الغربية التي يسودها مذهب اللا أدرية وفتور الهمة واللامبالاة، وهي آفات من شأنها أن تؤدي إلى هلاك تلك المجتمعات ماديًا، فضلًا عن هلاكها معنويًا».

\*

وها هي وثائق الكنيسة الكاثوليكية تتحدث اليوم عن خطط البابا يوحنا بولس الثاني، عشية الألفية الثالثة، لتنصير العالم، وارتداد الآخرين - ومنهم المسلمون - عن دياناتهم والدخول في المسيحية وفق معتقدات الكنيسة الكاثوليكية.

يقول البابا:«إن الهدف الإلهي الوحيد والنهائي يتمركز في يسوغ المسيح الإله والإنسان الذي يتعين على كافة البشر أن يجدوا فيه اكتمال الحياة الدينية والذي تصالح فيه كل شيء.

ولا يوجد مخلوق يمكنه أن يظل خارجًا أو حتى على هامش عمل يسوع المسيح الذي مات من أجل الجميع، إذن فهو منقذ العالم».

ووسيلة البابا إلى تحقيق ذلك هو الحوار الذي يعطيه مفهومًا خاصًا بحيث ينتهي إلى ارتداد الآخرين.

يقول البابا:«إن الكنيسة تستعمل الحوار لكي تحمل الناس على الارتداد والتوبة عن طريق تجديد ضميرهم وحياتهم تجديدًا عميقًا في ضوء سر الفداء والخلاص. إن الحوار الصحيح يرمي إذن بادئ ذي بدء إلى تجديد كل الناس بالارتداد الباطني والتوبة»([[3]](#footnote-3)).

\*

ألم أقل في صدر المقدمة أنه:«لا أحد يستفيد من أخطائه» وأن «التاريخ يعيد نفسه»....

هل من عاقل؟!... هل من رجل رشيد؟!..

فمهما يكن من أمر، فلقد تعودنا نحن المسلمين على مثل هذه النوبات التي يتعرض لها الغرب بين حين وحين. ونحن نثق تمامًا أن جنون الحملة على الإسلام - باعتباره العدو البديل الأخضر، بدلًا من ذلك العدو السوفيتي الأحمر - سوف ينتهي - بإذن الله - باندحار أعداء الإسلام.

وهذا الكتيب الذي بين يدي القارئ الآن يأتي تذكرة مركزة لتحديد من «نحن» ومن «هم»، ودور كل في البناء الحضاري. وقد اعتمدت في ذلك على شهادات «الآخرين» الذين لا يحسبون على المسلمين، أي على شهادات «هم».

كذلك أرجو أن يكون هذا الكتيب مفكرة في جيب كل من له علاقة بالحوار الإسلامي المسيحي، كاتبًا أو عاملًا أو محاورًا، ولن يصح في النهاية إلا الصحيح.

بقي أن أشير إلى أن عنوان هذا الكتيب ليس من عندي إنما هو اقتباس من أستاذ الجامعة السويسري مارسيل بوازار، كما جاء في كتابه القيم: إنسانية الإسلام.

﴿**فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [سورة الرعد: 17]**.

**أحمد عبدالوهاب**

# **حضارة لا إله إلا الله....**

يعرف التحضر، في أبسط صوره، بأنه الارتقاء بالإنسان من حالة التوحش والبداوة والجهل إلى ما هو أفضل، وذلك بالتعليم والتهذيب والعيش في نظام اجتماعي قادر على تيسير الحياة وتطويرها....

ويقول ي. هل في كتابه:«الحضارة العربية»:«الحاجة أم الحضارات الإنسانية، ذلك أن التنفس البشرية فطرت على شوق لا حد له إلى الرفاهية والسيطرة والجمال والحق. وهذه الغايات هي الأهداف الأخيرة لكل طموح إنساني، والسعي إليها هو العلة الجوهرية في ارتقاء الإنسانية.

فالمثل الأعلى للإنسان يكمن وراء عدة لا يحصى من الحاجات، وكلما حصل على واحدة منها اتسع مجال طموحه إلى ما يليها.

وعلى هذا النهج تسير الحضارات كلها: الحاجات الجديدة تؤدي إلى وجود أهداف جديدة، والكدح في سبيل هذه الحاجات هو الطابع الذي يميز الحضارة، والحصول عليها هو خلق للحضارة نفسها، وإدخال أقوال آخرين في مجالها هو نشر لهذه الحضارة([[4]](#footnote-4)).

إن النظر إلى الحضارة من هذا المنطلق إنما ينبع من مفهوم مادي بحت بالدرجة الأولى، وإن تخللته بعض اللمسات الفكرية التي تتحدث عن الحق والجمال. وهو تقرير خاطئ لأنه أسقط من حسابه العنصر الرئيسي المسئول عن الوجود الإنساني نفسه، وكل تقرير أسقط عنصرًا من العناصر المؤثرة في عملية ما يعتبر تقريرًا خاطئًا بلا جدال.

إن حضارة صنعها الإنسان بهذا المفهوم، لهي حضارة مقضي عليها بلا شك، لأنها لم تتعد أن تكون حضارة المتاع...

لقد نسي الإنسان خالق الوجود.. لقد نسي الإله..!

وماذا بقي بعد ذلك، بل وأي معنى لوجوده، إذن، وفيم الكفاح؟!

إن الإنسان لا يقف وحده، في هذا الكون،كما ادعى **هكسلي**، ومن سبقوه، ومن جاءوا بعده....

ومن هنا كانت حضارة الإسلام مختلفة عن غيرها من الحضارات، وحق لها أن تسمى باسم: **حضارة لا إله إلا الله...**

ونقطة البدء فيها أن يعلم الإنسان:﴿**أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: 19]**.

ومعنى هذا أن يتعامل الإنسان مع الله مباشرة، دون واسطة ما، كائنًا من كان....

فرسول الله ليس واسطة بين الله وخلقه، إنما هو داع إلى الله ومعلم منهجه، ومبين محتواه...

﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: 144]**.

ثم لنقرأ جيدًا قول الحق هذا، لنعلم كيف يدعو الله الإنسان - كل إنسان سواء أكان: رجلًا أو امرأة، متحضرًا مغرورًا أو متخلفًا لا يدري من أمر دنياه شيئًا.. يدعوه ليتعامل معه - سبحانه - مباشرة وذلك على هدي منهجه، فيقول مخاطبًا نبيه:

﴿**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: 52]**.

آنذاك يضع الإنسان عن كاهله آنذاك كاذبة،تتمثل في معتقدات خاطئة، وخوف من قوى لا وجود لها. ويفك أساراه وأغلاله التي قيدته بها تقاليد زائفة، فينطلق نحو التقدم في الحياة، ويعمل من أجل تخفيف آلامها، والاستمتاع بها وفق منهج الله، فيحقق لنفسه ولغيره الخير والأمن في الدنيا والآخرة.

حضارة الإسلام، إذن، هي حضارة لا إله إلا الله، لأنها تعلم الإنسان الحق والخير والجمال، وتدعوه إلى التفكر والبحث والدراسة والإبداع، وتجعل تخفيف أعباء الحياة وتوفير المتاع عبادة مثل سائر العبادات..

# **مقومات الحضارة الإسلامية**

## طلب العلم فريضة:

تقول العالمة الألمانية الدكتورة سيجريد هونكه عن حضارة الإسلام التي قامت على لا إله إلا الله:

«لقد أوصى محمد كل مؤمن، رجلًا كان أو امرأة بطلب العلم. وجعل ذلك واجبًا دينيًا. فهو الذي يقول للمؤمنين: **اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد**. ويرشد أتباعه دائمًا إلى هذا، فيخبرهم بأن ثواب التعلم كثواب الصيام، وأن ثواب تعليمه كثواب الصلاة.

وكان محمد يرى في تعميق أتباعه في دراسة المخلوقات وعجائبها، وسيلة للتعرف على قدرة الخالق، وكان يرى أن المعرفة تنير الإيمان، مرددًا عليهم: **اطلبوا العلم ولو في الصين.**

والرسول يطلب إلى علوم كل الشعوب، فالعلم يخدم الدين. والمعرفة من الله وترجع إليه. لذلك فمن واجبهم أن يصلوا إليها وينالوها، أيًا كان مصدرها ولو نطق بالعلم كافر».

وعلى النقيض تمامًا يتساءل بولس الرسول مقرًا:(ألم يصف الرب المعرفة الدنيوية بالغباوة)؟([[5]](#footnote-5)).

مفهومان مختلفان بل عالمان منفصلان تمامًا، حددا بهذا طريقين متناقضين للعلم والفكر في الشرق والغرب.

وبهذا اتسعت الهوة بين الحضارة العربية الشامخة، والمعرفة السطحية المعاصرة في أوروبا، حيث لا قيمة لمعرفة الدنيا كلها.

ويعرف القديس أوغسطينوس محور المعرفة قائلًا:(أما الرب والروح فإني أبغي معرفتهما. فالبحث عن الحقيقة هو البحث عن الله، وهذا لا يستدعي معونة من الخارج). والمصدر الوحيد لتلك المعرفة هو الكتاب المقدس، وقصة الخليقة تعطي كل ما يحتاجه المرء من معلومات عن السماء والأرض والجنس البشري. وأما أن يكون هناك سكان على الوجه الآخر من الأرض، فقد نفاه أوغسطينوس بشدة: (**الكتاب المقدس لم يذكر مثل هذا الجنس من سلالة آدم).**

وأما ما يدعيه بعضهم من أن الأرض كروية فهو كفر وضلال، فمعلم الكنيسة لاكتانتيوس يتساءل مستنكرًا: (هل هذا من المعقول؟ أيعقل أن يجن الناس إلى هذا الحد، فيدخل في عقولهم أن البلدان والأشجار تتدلى من الجانب الآخر من الأرض، وأن أقدام الناس تعلو رؤوسهم)؟! لقد كانت الأرض بالنسبة إلى بعض الناس تلًا تدور الشمس حوله ما بين الشروق والغروب وبالنسبة إلى الآخرين مسطحًا تحيط به المحيطات...

ملعون من يقتنع أو يقبل الآن تفسيرًا علميًا لحوادث الطبيعة. خارج عن طاعة الرب من يشرح أسبابًا طبيعية لبزوغ كوكب أو فيضان نهر، بل لمن يعلل علميًا شفاء قدم مكسورة أو إجهاض امرأة. فتلك كلها عقوبات من الله، أو من الشيطان، أو هي معجزات أكبر من أن ندرك كنهها!

ما وصلت إليه الكنيسة وكهنتها في المجال الديني، لم يكن عامل إنقاذ للحضارة بل كان عائقًا لها. لقد كانت أمامهم الفرصة، تمامًا كالعرب، بل إن فرصتهم كانت أكبر في أن يأخذوا التراث العظيم ويتطوروا به في درجات السلم المرقي..

لكن الفكر الإغريقي ظل بالنسبة إليهم غريبًا على الدوام. فحوالي عام 300 ميلادية علل أسقف قيصرية أويزيبيوس ذلك المسلك لعلماء الطبيعة من الإسكندرية قائلًا:(إن موقفنا هذا ليس جهلًا بالأشياء التي تعطونها أنتم كل هذه القيمة، وإنما لاحتقارنا لهذه الأعمال التي لا فائدة منها. لهذا فإننا نشغل أنفسنا بالتفكير فيما هو أجدى وأنفع).

ويظل هذا التفكير العقيم سائدًا لا يتغير، فيتحدث بمثل هذا في القرن الثالث عشر، القديس توما الأكويني فيقول:(إن المعرفة القليلة لأمور سامية أجل قدرًا من معرفة كبيرة موضوعها أمور حقيرة)...

ولقد بدت للسادة المهيمنين على الأمور ضرورة تحريم الكتب التي تهتم بالأمور الحقيرة الدنيوية على المتعلمين ورجال الدين.

ففي عام 1206 نبه مجمع رؤساء الكنائس المنعقد في باريس رجال الدين بشدة إلى عدم قراءة كتب العلوم الطبيعية، واعتبر ذلك خطيئة لا تغتفر.

وقضى هذا التفكير الضيق على كل موهبة، وعاق كل بحث علمي، وأجبر كل المفكرين الذين لا تتفق أعمالهم ومعتقدات الكنيسة هذه على إنكار ما قالوه من النظريات العلمية، وإلا كان مصيرها الحرق العلني بالنار لكفرهم وخروجهم على المعتقدات الإلهية.

ومن هنا فقط يتضح لنا تمامًا لماذا احتاجت الحضارة في الغرب ألفًا من السنين قبل أن تبدأ في الازدهار تدريجيًا، مع أنها كانت لديها فرصة مناسبة لتبدأ قبل الحضارة العربية بقرنين أو ثلاثة...

وما إن انقضى قرن واحد من الزمان على الفتوحات الإسلامية حتى ازدهرت حضارة العرب وآتت أكلها مكتملة ناضجة... إن الإسلام لا يعرف وسيطًا بين العبد والرب، ولم يكن لديه على الأقل في تلك الظروف الحاسمة طبقة من الكهنة ولا تنظيمات وسلطات عليا مشرفة. وحيثما كانت المسيحية تطغى نتيجة لتسامح المسلمين، كان ذلك دائمًا يؤدي إلى كساد العلوم وإهمالها. ولعل إفناء الطبقة العلمية العليا على يد الأسبان والمغول، هو خير برهان على ما نقول.

كانت الاحتكاكات بين الآراء المختلفة قد منحت الحركة الفكرية حيوية دائمة، وحمت الإسلام من الجمود وأجبرته على أن يسلح نفسه علميًا، وأن يتطور بالقوى العقلية وينهض بها من سيادتها. وساعده على ذلك المطالب العديدة المنبثقة من شعائر الدين أو من الحياة اليومية للشعوب.

واجبات عديدة ومسئوليات جسيمة: فمعالجة المرضى ضرورية، وحماية الملايين من سكان المدن الكبيرة من الأوبئة، وإمدادهم بالدواء الناجع يتطلب أبحاثًا عملية دقيقة. وأدخلتهم حاجات تلك الملايين في عالم الحيوان والنبات ليدرسوه وينهضوا به. فنظم ري الأرض ومسحها، ورصدت الكواكب وحركاتها، ونظمت الرحلات، وأخذ كل شيء مكانه وزمنه اللازم له....

ففي كل حقل من حقول الحياة صار الشعار للجميع: تعلم وزد معارفك قدر إمكانك وأينما استطعت. وبأقدام ثابتة ونفوس مطمئنة، تعرف حقها وتؤدي واجبها، أقبل العرب على ما وجدوا من معارف، فاغترفوا منها قدر جهدهم، وما رأوا فيه نفعًا لهم...

لقد ذاقوا حلاوة العلم فازداد شوقهم إلى البحث عنه، لم يعودوا يرضون بغير العلم والبحث بديلًا. وبدأ نوع فريد فالتاريخ من طرق الكشف عن كنوز المعرفة، خصصت له البعثات الضخمة والأموال الطائلة، بل واستخدمت لأجله الوسائل الديبلوماسية، وخدمته سياسة الدولة الخارجية.

ولو أردنا دليلًا آخر على مدى الهوة العميقة التي كانت تفصل الشرق عن الغرب، لكفانا أن نعرف أن نسبة 95% على الأقل من سكان الغرب في القرون: التاسع، والعاشر، والحادي عشر، والثاني عشر. كانوا لا يستطيعون القراءة والكتابة.

وبينما كان شارل الأكبر يجهد نفسه في شيخوخته لتعلم القراءة والكتابة، وبينما أمراء الغرب يعترفون بعجزهم عن الكتابة أو القراءة، وفي الأديرة يندر بين الكهنة من يستطيع مسك القلم، لدرجة أنه عام 1291 لم يكن في دير جالينوس من الكهنة والرهبان من يستطيع حل الخط - بينما كان هذا كله يحدث في الغرب - كانت آلاف مؤلفة من المدارس في القرى والمدن تستقبل ملايين البنين والبنات، يجلسون على سجادهم الصغير يكتبون بحبر يميل إلى السواد فوق ألواحهم الخشبية، ويقرؤون مقاطع من القرآن حتى يجيدوها، ويجودون ذلك معًا بلحن جميل عن ظهر قلب، ثم يتقدمون خطوة تلو الأخرى في المبادئ لقواعد اللغة.

وكان الدافع إلى كل هذا هو رغبتهم الصادقة في أن يكونوا مسلمين حقًا كما يجب أن يكون المسلم. فلم يجبرهم أحد على ذلك، بل اندفعوا إليه عن رغبة وإيمان، لأن من واجب كل مسلم أن يقرأ القرآن.

فالكتاب المقدس لا يجد الناس إليه سبيلًا، إذا استثنينا الكهنة ورجال الدين، فهم وحدهم يستطيعون قراءته وفهم لغته.

ومنذ عام 800 ميلادية لم يعد الشعب يفهم المواعظ الملقاة باللاتينية، حتى أن مجلس رؤساء الكنائس المنعقد في مدينة تور أوصى بوعظ الناس باللغة التي يتكلمون بها. ولم تكن هناك حاجة تدعو الشعب في تلك العصور إلى تعلم اللاتينية، بل لم تكن هناك أية رغبة في تعليم الشعب أو تثقيفه.

وعلى خلاف ذلك، كان الحال في العالم الإسلامي، فقد اهتمت الدولة بتعليم الرعية. ولم تلبث أن جعلت من التربية واجبًا ترعاه، فالأطفال من مختلف الطبقات يتعلمون التعليم الأولي مقابل مبالغ ضئيلة يقدر على دفعها الناس دون مشقة.

ومنذ بدأت الدولة تعين المعلمين للمدارس، أمكن للفقراء أن يعلموا أولادهم مجانًا.

بل إن بعض البلدان العربية، مثل أسبانية، قد جعلت التعليم للجميع مجانًا. وقد افتتح الحكم الثاني حوالي عام 965م في قرطبة سبعًا وعشرين مدرسة لأبناء الفقراء، بالإضافة إلى المدارس الثماني التي كانت فيها فعلًا.

وفي القاهرة، أنشأ المنصور قلاوون مدرسة لليتامى ملحقة بالمستشفى المنصوري، ومنح كل طفل فيها، يوميًا، رطلًا من الخبز، وثوبًا للشتاء، وآخر للصيف.

وأنشأت الدولة المدارس العليا في كافة المدن الكبيرة. وكان الطلبة يتناولون طعامهم مجانًا، بل ويتقاضون مرتبًا صغيرًا، ويسكنون في الأدوار العليا في المدرسة دون مقابل. أما في المهاجع فثمة المطبخ والمخازن والحمامات. وفي الطبقة الأرضية تلتف الفصول وقاعات المكتبة على شكل دائري خلف ممرات مظلة تزينها الأعمدة، وفي الوسط فناء فسيح تتوسطه نافورة ماء.

هنا يتعلم شباب العرب الطَّموح القرآنَ وقواعد اللغة والديانة والخطابة والأدب والتاريخ والجغرافية والمنطق والفلك والرياضة.

ويساهم الطلاب في المناقشات والمناظرات، ويعيد معهم دروسهم مساعدون من طلبة الصفوف المتقدمة أو من الخريجين. وتبدو هذه المدارس كخلايا النحل الدائبة النشاط، تخرج للجميع شهدًا حلوًا فيه شفاء للناس، ولتقدم قادة للعلم والسياسة.

أما الطريق الذي يسلكه الراغب في تعلم فرع معين من العلوم، والذي يرغب الطالب أن يقوم هو بتدريسه يومًا من الأيام، فكان يبدأ في المساجد. فلم تكن المساجد مجرد أماكن تؤدى فيها الصلوات فحسب، بل كانت منبرًا للعلوم والمعارف، كما ارتفعت فيها كلمات الرسول فوق مجد التدين الأعمى. ألم يقل محمد أقوالًا، كان يكفي لأن يقولها في رومة حتى يحاكم عليها بتهمة الهرطقة. أو ليس هو القائل: بأن حبر الطالب أقدس من دم الشهيد؟!

وحول أعمدة الجامع كان يجلس الأستاذ ويلتف حوله طلبته، حلقة أبوابها مفتوحة لمن يشاء، رجلًا كان أو امرأة، ولكل الحق في سؤال الأستاذ أو مقاطعته معارضًا. وكان هذا النظام أكبر دافع للأساتذة يدفعهم دائمًا للإعداد المتقن لدروسهم والتعمق فيها...

وحول أعمدة المساجد أتيحت للطلاب دائمًا فرصة الاستماع إلى الأساتذة الزائرين من كل أنحاء العالم العربي المترامي الأطراف. سواء أكان هؤلاء العلماء في طريقهم إلى الحج أو مسافرين خصيصًا لهذا الغرض، يجوبون أنحاء العالم الإسلامي من سواحل بحر قزوين إلى سواحل الأطلسي، ومنهم المؤرخون والجغرافيون، ومنهم علماء الحيوان والنبات والباحثون في تراث الأدب القديم...

لقد قدم العرب، بجامعاتهم التي بدأت تزدهر منذ القرن التاسع، والتي جذبت إليها منذ عهد البابا سلفستر الثاني عددًا من الغربيين من جانبي جبال البرانس، ظل يتزايد حتى صار تيارًا فكريًا دائمًا، فقدم العرب بها للغرب نموذجا حيًا لإعداد المتعلمين لمهن الحياة العامة وللبحث العلمي.

لقد قدمت تلك الجامعات - بدرجاتها العلمية، وتقسيمها إلى كليات، واهتمامها بطرق التدريس - للغرب أروع الأمثال، ولم تقدم هذا المظهر فقط، بل وفرت له كذلك اللباب: مادة الدراسة([[6]](#footnote-6)).

وإذا كان الكتاب يقرأ من عنوانه، كما يقال دائمًا، فإن ما سطره الدكتور لويس يونج في مقدمة كتاب: العرب وأوروبا، لكفيل بإعطاء فكرة معقولة عن محتوى هذا الكتاب.

يقول لويس يونج:«قصة التفاعل بين حضارتي العرب وأوربا معقدة وشائكة وطويلة: وهي إذ تبدو قصة فتوحات وإعادة فتوحات، فإنها تأخذ أحيانًا أشكال مبادلات ثقافية متناوبة، أخذًا وعطاءً.

ونحن حينما نسلم اليوم أن آسيا وأفريقيا تتمثلان أوروبا قدوة لهما، يجب ألا ننسى الوجه الآخر للصورة في العصور الوسطى، عندما عكفت أوروبا على علوم العرب من طب وفلسفة وطبيعة، واستمر ذلك لفترة طويلة. حتى إذا كان القرن الثامن عشر قبست منهم نار الرومانطيقية، وفي القرن التاسع عشر سلبتهم أراضيهم، ثم بترولهم في القرن العشرين.

وعلى الرغم من سجل أوروبا الطافح بالتزمت الفكري واللا تسامح الديني، على النقيض من المسلمين، فإنها ظلت ترفض الاعتراف بما للعرب من يد طولى على حضارتها، وتتجاهل دورهم الحضاري، وتقلل من شأنه.

لقد هول المؤرخون الأوربيون في وصفهم الفتوحات الإسلامية في أوروبا خلال العصور الوسطى ومدى تهديدها للدين المسيحي، بينما تغافلوا عن ظاهرة انتكاس الحضارة في البلدان التي أجلي العرب عنها. وما أسبانيا والبرتغال وصقلية إلا أمثلة لذلك.

ففي أسبانيا يسود التعصب الديني وتعذيب الحيوانات (كمصارعة الثيران) كمشهد مألوف. وفي البرتغال أعلى نسبة للأمية في أوروبا، وفي صقلية عصابة المافيا السيئة السمعة.

ما الذي تركته حضارة العرب والمسلمين في أوروبا؟.

لقد تركت بصماتها على جميع المستويات، ابتداء من الفولكلور، كراقصي الموريش الإنكليز الذين هم في الحقيقة قناع لراقصي البربر، وانتهاء بالعلوم حيث يستخدم ملاحو الفضاء اصطلاحات عربية مثل: السمت، وسمت الرأس، وهناك في خرائط القمر أكثر من موقع أطلق عليها أسماء لبعض العلماء لعرب: كالزركلي والبتاني وأبي الفداء.

إن أشياء كثيرة لا يزال على الغرب أن يتعلمها من الحضارة الإسلامية، منها نظرة العرب المتسامحة وعدم تمييزهم فروق الدين والعرق واللون.

وسوف أحاول في الصفحات التالية أن أقدم الخطوط العريضة للتاريخ العربي والمجتمع الإسلامي، وما أرساه العرب من أسس أولًا. كما سأشير، ثانيًا، إلى أهم الطرق والأساليب التي أثرت بواسطتها حضارة العرب في الحضارة الأوروبية، وكيف أثرت أوروبا بدورها في الحضارة العربية([[7]](#footnote-7)).

\*

و يحدثنا موريس لومبار في كتابه «الإسلام في فجر عظمته» عن تأثير الفتوحات الإسلامية على تحضر الغرب وانطلاقه نحو الحضارة، فيقول:

«لم يترافق الفتح بالتخريب مطلقًا، فلم تحرق المدن ولم تنهب.. وبالنسبة للقسم الغربي، فكان تجددًا حقيقيًا...».

إننا نعتقد بالواقع أن الغرب استأنف التماس بالحضارات الشرقية، وعبرها بالحركات العالمية الكبرى للتجارة والثقافة، بفضل الفتح الإسلامي وفي حين أن الغزوات البربرية الكبرى في القرنين الرابع والخامس أدت إلى التقهقر الاقتصادي للغرب، فقد جلب قيام الإمبراطورية الإسلامية الجديدة لهذا الغرب نفسه تطورًا مدهشًا.

وإذا كانت الغزوات الجرمانية قد عجلت بانحطاط الغرب، فإن الفتوحات الإسلامية كانت حافزًا على انطلاق حضارته([[8]](#footnote-8)).

وهكذا يعترف أهل العلم والفضل من مختلف شعوب أوروبا، كالألمان والإنجليز والفرنسيين، بفضل حضارة الإسلام وأثرها في بناء الحضارة الأوروبية الحديثة. وهو فضل لا ينكره إلا جاهل أو متعصب.

\* \*

## تحرير النساء:

تقول سيجريد هونكه:«إن الحلي التي يقدمها الأوروبي لحبيبته أو لزوجة صديقه أو رئيسه، سواء أكانت ماسًا أصليًا أو زجاجًا مصقولًا، هي عادة استوردت من الشرق ويمارسها الناس كل يوم ولا يعرفون لها مصدرًا، وتمر السنون. والحلي تلك ما زالت تتنوع وتتغير، ولكنها لم تفقد قوتها السحرية في جذب قلوب النساء حتى ولو كنا نعيش في القرن العشرين.....

وقد تعارض هذا الاتجاه العربي في تكريم المرأة أيضًا مع ما كان سائدًا في دول البحر الأبيض...

وعارض الكتاب المقدس أيضًا ذلك المسلك العربي، ونص على أن الرجل سيد المرأة، ونشطت الكنيسة تحارب كل الأفكار المخالفة، وتعمل كل ما في وسعها لإبقاء المرأة تحت سيطرة الرجل، تبعًا لمشيئة الرب.

وعلى الرغم من هذا، فقد قاوم العرب كل التيارات المعادية واستطاعوا القضاء على هذا العداء للمرأة، وجعلوا من منهجهم مثالًا احتذاه الغرب ولا يملك الآن منه فكاكًا.

ولكن، أو ليس هذا نوعًا من المبالغة؟ وهل يعقل هذا الكلام؟! ثم ألم تعش نساء العرب منذ زمن بعيد مقيدات مظلومات لا يتمتعن بحقوقهن؟ ألم نسمع بالحريم كالسجن يملك فيه الرجل عددًا كبيرًا منهن يقيم عليهن الحراس؟ ألم تسمع بنساء يزوجن دون أن يستشرن؟ وتكفي بضع كلمات يتفوه بها الرجل وقتما شاء لتصبح المرأة طالقًا تعود إلى عائلتها دون أي ذنب، والدين لا يمنع هذا؟...

أين هي الحقيقة في كل هذا؟ وما هو مركز المرأة في المجتمع؟.

ألم تكن خديجة زوج النبي الأولى، التي عاش معها أربعة وعشرين عامًا وأنجب منها ستة أطفال، أرملة لها شخصيتها ومالها ومكانتها الرفيعة في مجتمعها؟ لقد كانت خديجة نموذجًا لشريفات العرب، أجاز لها الرسول أن تستزيد من العلم والمعرفة كالرجل تمامًا.

وسار الركب وشاهد الناس سيدات يدرسن القانون والشرع ويلقين المحاضرات في المساجد ويفسرن أحكام الدين. فكانت السيدة تنهي دراستها على يد كبار العلماء، ثم تنال منهم تصريحًا لتدرس هي بنفسها ما تعلمته، فتصبح الأستاذة الشيخة، كما لمعت بينهن أديبات وشاعرات، والناس لا ترى في ذلك غضاضة أو خروجًا على التقاليد.

إن النساء في صدر الإسلام لم يكن مظلومات أو مقيدات، ولكن هل دام هذا طويلًا؟

لقد هبت على قصور العباسيين رياح جديدة قدمت من الشمال فغيرت الأوضاع، وقدم الحريم والحجاب مع الجاريات الفارسيات واليونانيات اللاتي كن محظيات للخلفاء وأمهات لأولادهم..

والإسلام بريء من كل ما حدث، والرسول لم يأمر قط بحجب النساء عن المجتمع. لقد أمر المؤمنين من الرجال والنساء على حد سواء بأن يغضوا الطرف، وأن يحافظوا على أعراضهم. وأمر النساء بألّا تظهرن من أجسادهن إلا ما لا بد من ظهوره، وألا يظهرن محاسن أجسادهن إلا في حضرة أزواجهن...

لقد شرعت القصور تعزل النساء في الحريم على غرار ما تعوده الفرس، وبدأ استيراد الخصيان لخدمتهن كما كان عليه الحال في بيزنطة قديمًا. وأصبح حجب النساء عن المجتمع وعدم مغادرتهن مظهرًا من مظاهر الأبهة والثراء([[9]](#footnote-9)).

\* \*

## التسامح الديني وتحرير الشعوب:

يقول موريس لومبار في حديثه عن الفتوحات الإسلامية:

«كيف يمكن شرح سهولة الفتح وسرعته، خاصة إذ نفذ بعدد قليل جدًا من الفاتحين؟

لقد كان للعرب في حقيقة الأمر كل الفرص المواتية ليستقبلوا كمحررين من قبل السكان القدماء للعالم السامي في سوريا وما بين النهرين ومصر. ففضلًا عن القرابة العرقية واللغوية التي تربط بعضًا من هذه الشعوب بالعرب، فإنها كانت تخضع منذ زمن طويل إلى روما ثم بيزنطة في الغرب، وإلى الامبراطوية الفارسية الساسانية في الشرق. لقد كانت هذه الشعوب بحالة انتفاضة دائمة ضد إدارة القسطنطينية والمدائن.

وكانت هذه الانتفاضة كما هي العادة في الشرق دينية في ظاهرها، بينما هي في حقيقتها ذات أساس اجتماعي، كان الملك البيزنطي مزعزعًا بصراع الهرطقات، فالنسطورية واليعقوبية على الخصوص تتعارضان مع الأرثوذكسية الحاكمة.

وفي ظل الدولة الساسانية تطورت المانوية والمسيحية، وكلها معتقدات ضد الدين الرسمي أي المزدكية.

وفي منازع الإسلام إلى الديمقراطية، ودعوته إلى المساواة، وعالمية رسالته، وجدت حركات الثورة الاجتماعية والدينية جوابًا على مطالبها، ومن هنا أتت - جزئيًا على الأقل - سهولة الفتح.

ودفع التطلع إلى النظام والسلام سكان المدن أيضًا لأن ينضموا إلى الفاتح كانوا ينتظرون منه حماية ضد الفوضى والنهب....

ومما سهل العلاقات مع السكان البلاد المفتوحة في كل الحالات، تسامح الفاتحين، وبعدهم عن التعصب الديني...

وهكذا فلا إكراه ولا اضطهاد، بل كان مطلبهم الوحيد هو النظام الضريبي... كان الفتح سريعًا جدًا حتى أنه تم دون فواصل أو انقطاع([[10]](#footnote-10)).

\*

ويقول الدكتور فيليب حتى «لو قام في الثلث الأول من القرن السابع الميلادي أحد وتكهن بأن دولة خامدة الذكر وضيعة الجانب، تخرج من مجاهل جزيرة العرب، ثم تنقض على الدولتين العظيمين المعروفتين، فتقوض الدولة الواحدة - دولة آل ساسان - وتظفر بأملاكها، ثم تقطع من ولايات الثانية - بيزنطة - أزهى مقاطعاتها، تقول لو صدرت مثل هذه النبوءة من فم إنسان ذلك العصر لحكم عليه بالجنون.

والواقع أن هذا ما حدث فعلًا، فبعد الرسول تغيرت طبيعة بلاد العرب الجدباء، وأخذت تنشئ أبطالًا ينذر وجود من يشاركهم في أي صقع كان، فكأن أعجوبة حلت فيها...

إن عظمة الجيش العربي لم تقم على قوة السلاح أو جودة التنظيم، بل كان ثمرة القوة المعنوية الروحية التي كان الإيمان والدين عززاها في نفسه...

لقد جاء الإسلام مهيبًا بالشرق إلى النهوض من كبوته، بعد ألف سنة اجتاحته فيها سطوة الغريب.. ولقد انفتح أمام الأمم المغلوبة باب الحرية، فصاروا يمارسون عقائد أديانهم دون إزعاج([[11]](#footnote-11)).

\*

ويقول جوزيف رينو في كتابه «الفتوحات الإسلامية في فرنسا وإيطاليا وسويسرا» كوسيلة من وسائل نقل الحضارة:

«عندما استقر المسلمون في القرن التاسع الميلادي في بروفانس وفي دوفيني وسافواي، وفي سويسرا، كانوا قد قطعوا أشواطًا في العلوم والفنون، ويتقدمون بطريقة عجيبة، ومما لا جدال فيه أن مسلمي الأندلس وصقلية، ومسلمي أفريقيا الشمالية، كانوا أكثر تقدمًا من سكان فرنسا والبلدان المجاورة، حيث كانت هذه البلدان كلها تعاني من الفوضى ومن كل أنواع البؤس التي تلازمها.

فمن ذا الذي لم يسمع بعظمة مسجد قرطبة، ومن ذا الذي يجهل ما شيده المسلمون من الجسور، وما شقوه من الأنهار والقنوات لري الأرض. وما شيدوه من الآثار العظيمة في الأندلس ابتداء من النصف الثاني للقرن الثامن الهجري؟!

وعظمة المسلمين وتفوقهم لا تتجلى في الفنون وحدها، حيث أن عبقريتهم قد برزت في العلوم أيضًا - العلوم التي لا يمكن أن تقوم دعائم حضرة بدونها. فقد كان العرب يملكون ذخائر علوم الأولين وكنوزهم، وكانوا قد ترجموا إلى العربية كتب أرسطو وأبقراط وجالينوس ودسقوريدس وبطليموس وغيرهم، وأضافوا مساهمات ثمينة إلى ما اكتشفه الأولون.

وهكذا، فقد كان تفوق العرب حقيقة لا مراء فيها، ويعترف بها المسيحيون أنفسهم.

وقد حفظ لنا التاريخ قصة شانجة ((Sanche ملك ليون الذي طلب إذنًا من عبدالرحمن الثالث، عندما أصيب بمرض عضال في سنة 960م، ليقصد قرطبة ملتمسًا الاستشفاء على يد الأطباء المسلمين. ويضيف المؤرخون أن شانجة قد وجد عند هؤلاء العناية، وفي علمهم المساعدة التي كان ينشدها. وقد ظل طوال حياته يذكر الحفاوة التي قوبل بها والاهتمام الذي أحبط به.

وفي غضون تلك الفترة نفسها، كان قسيس اسمه جيربر (Gerbert) قدر له أن يصبح البابا سيلفستر الثاني (Sylvester) قد قصد إلى الأندلس ليطلب العلوم الطبيعية والرياضية، وقد حصل من تلك العلوم وغيرها حظًا عظيمًا، بحيث اعتبرته عامة الناس في فرنسا ساحرًا.

على أن عددًا صغيرًا من الفرنسيين استطاع الاغتراف من معين الثقافة والعلوم العربية في الأندلس، في الوقت الذي ظلت فيه الجماهير غارقة في ظلمات الجهالة في فرنسا..

إن نشر النفوذ الحضاري العربي الحقيقي في فرنسا والبلاد المجاورة لها، فقد بدأ بعد ذلك، أي ابتداء من القرن الثاني عشر الميلادي، ولاسيما في أعقاب الحروب الصليبية، وبعد الاحتكاك الذي وقع بين الإسلام والمسيحية، والشعوب الشرقية والشعوب الغربية التي من بينها الشعوب الفرنسية والانجليزية والألمانية - تلك الشعوب التي بدأت تخرج من سباتها العميق، وشرعت في إبداء رغبتها في الاستفادة مما حققته الحضارة العربية من التقدم.

كانت العلوم اليونانية في ذلك الوقت قد انمحت من أوروبا، ولكنها كانت مترجمة ومحفوظة عند العرب. وكذلك اتجه المسيحيون من فرنسا والبلدان المجاورة لها إلى أسبانيا ليتعلموا تلك العلوم بالعربية، لينقلوها إلى اللغة اللاتينية التي كانت يومئذ لغة العلم في أوروبا. وهذه الكتب المترجمة هي التي ستدرس في الجامعات الأوروبية حتى القرن الخامس عشر.

سوف لا نتوقف لدرس مختلف الأشياء المحفوظة بعناية في فرنسا والتي يرجع تاريخه إلى العهد العربي. وهذه الآثار تتكون، خصوصًا، من أقمشة الحرير، وصناديق العاج أو الفضة، وكؤوس البلَّور وأسلحة... الخ. وجزء كبير من هذه التحف لا يزال محفوظًا في الكنائس ولدى الهواة لجمع التحف الأثرية..

لقد ظل الناس في فرنسا والبلدان المجاورة لها، أجيالًا طويلة، وهم لا يفكرون إلا في عظمة الفكر الإسلامي، وفي قوة المسلمين واتساع آفاق فتوحاتهم...

وكذلك كان الرأي العام يعزو إلى العرب كل ما هو عظيم وضخم من المنجزات العمرانية...

لقد جاء المسلمون إلى فرنسا قبل النورمانديين والهنغاريين، وقد استمر وجودهم فيها، بعد غارات هؤلاء وأولئك والفتوحات الإسلامية كانت تكتسي طابعًا من الجلال والعظمة بحيث لا يمكن أن يقرأ إنسان أخبارها أو يسمع رواياتها دون أن تهتز نفسه لها. فعلى عكس النورمانديين والهنغاريين، كان المسلمون، أجيالًا طويلة في طليعة قافلة الحضارة في العالم»([[12]](#footnote-12)).

\*

لقد ذكر جوزيف رينو ما ذكره الناس في فرنسا عن البابا سلفستر الثاني. الذي درس العلوم الطبيعية والرياضية على يد المسلمين في الأندلس، إذ اعتبروه ساحرًا، وخاصة عندما كان يدهشهم بتجاربه في الكيمياء والفيزياء.

أما لويس يونج، فإنه يعطي تفصيلًا عن الفكر الأوروبي في ذلك الوقت، والذي استمر حتى القرن السابع عشر، لا يملك إلا أن يعزو كل ما كان يجهله إلى الشيطان وألاعيبه. وما جنون ظاهرة تعقب النساء المتشيطنات ببعيد..

يقول يونج «لقد أغنى الرياضيون العرب العالم بالمعرفة في جميع المجالات، وبخاصة الأفكار والملاحظات الرياضية».

وأحد أوائل الأوربيين الذين أخذوا بالأرقام العربية كان جربرت، الذي أصبح فيما بعد (في عام 999م) البابا سيلفستر الثاني (ولد 945 - وتوفي 1003م). سافر جربرت هذا بين عامي (967 - 970م) إلى أسبانيا، حيث درس العلوم، وألف بعد ذلك كتابًا يشرح فيه كيفية استخدام الأرقام العربية.

إلا أن أوروبا لم تلق بالًا إلى هذا النظام الجديد. بل كان ينظر إلى جربرت بعين الشك، لأنه درس على يد العرب في أسبانيا، وعلى المستوى الشعبي كان يشك في أنه يمارس السحر.

ولقد رويت عنه كثير من الروايات الخارقة. فقيل أنه كان يغادر الدير ليلًا. ويطير في الهواء إلى أسبانيا حيث يدرس الفلك والفنون السحرية، ثم يعود إلى حجرته قبل بزوغ الفجر.

كما كان يظن بأنه تعلم إحضار الأرواح من جهنم، وأنه يحتفظ بكتاب سحر حصل عليه بالمكر والخديعة من ساحر عجوز، وأنه رهن روحه للشيطان لكي يحميه من انتقام هذا الساحر العجوز.

وبعد فترة طويلة من الزمن تبنت أوروبا الأرقام العربية، نتيجة أعمال ليوناردو فيبوناتشي من بيزا، الذي توفي عام 1240م، وكان فيوناتشي رياضيًا. درس الرياضيات على يد معلم عربي، في شمال أفريقيا، وأصدر كتابًا يشرح فيه نظام الأرقام العربية عام 1202م، وكان ذلك بداية تبني أوروبا للأرقام العربية، وبداية لعلم الرياضيات الأوروبي([[13]](#footnote-13)).

## أما بعد....

إن هذا الذي يراه الناظر في التاريخ القديم، ليثير العجب والانبهار حقًا، حين يطل خلال تلك الحقبة من الزمن، فيرى أبناء الصحراء وقد خرجوا إلى العالم، شرقًا وغربًا، يعلنون: لا إله إلا الله، ويقيمون حضارة زاهرة تشع أنوارها هنا وهناك، فينهل منها الظامئون إلى العلم والإيمان، ويصد عنها الآخرون:

﴿**اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: 43]**.

وفي هؤلاء الأخيرين، قال مفكر مسيحي هو الدكتور نظمي لوقا قولة حق، وحكمة ترددها الألسنة عبر القرون:

«من يغلق عينيه دون النور، يضير عينيه ولا يضير النور. ومن يغلق عقله وضميره دون الحق، يضير عقله وضميره ولا يضير الحق».

فالنور منيفة للرائي لا للمصباح، والحق منفعة وإحسان إلى المهتدي به لا إلى الهادي إليه.

وما من آفة تهدر العقول البشرية كما يهدرها التعصب الذميم الذي يفرض على أذهان أصحابه وسراؤهم ما هو أسوأ من العمى لذي البصر، ومن الصمم لذي السمع، لأن الأعمى قد يبقى بعد فقدان البصر إنسانًا، والأصم قد يبقى بعد فقدان السمع إنسانًا... أما من اختلت موازين عقله أو موازين وجدانه، حتى ما يميز الخبيث من الطيب، فذلك ليس بإنسان، بالمعنى المقصود من كلمة إنسان([[14]](#footnote-14)).

وحين نفتش أسفار الكتاب المقدس، نجد أن هذا الذي طلع به أبناء الصحراء على العالم، إنما كان تحقيقًا لنبوءة هتف بها اشعيا النبي في منتصف القرن الثامن قبل الميلاد - وخاصة في الإصحاح الثاني والأربعين من السفر الذي يحمل اسمه، فقال في النبي العربي وقومه وتابعيه:

1. يشتهر هذا النبي المنتظر بلقب: عبدالله ورسوله:«هو ذا عبدي الذي أعضده، مختاري الذي سرت به نفسي. وضعت روحي عليه فيخرج الحق للأمم».

وقد اشتهر محمد نبي الإسلام بأنه: عبدالله ورسوله، فتلك بداية الإسلام لكل مؤمن، يعرفها الصغير قبل الكبير، ويرددها المسلم كل يوم في صلاته المكتوبة تسع مرات على الأقل حين يقرأ التشهد، إضافة لما يقوله في صلواته الأخرى من السنن والنوافل.

والحق يقول في القرآن:

﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنـزلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا**﴾ **[الكهف: 1]**.

﴿**وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نـزلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 23]**.

ومما يندى له الجبين خزيًا وأسى، تلك المقولات الكاذبة التي ظلت ترددها الكنيسة طوال القرون الوسطى، ولا يزال صداها يتردد إلى الآن، وهو أن المسلمين يعبدون محمدًا.. أي جهل أحمق من هذا؟!

لكنه التزوير المتعمد، وطمس الحقائق عن عيون الشعوب، حتى لا يفيقوا ذات يوم ويميزون الخبيث من الطيب.

يقول جوزيف رينو عن جهل الفكر الأوروبي والخرافات التي امتلأت بها عقول الأوروبيين، في القرون الوسطى، عن الإسلام والمسلمين:

«إن الكتاب المسيحيين في العصور الوسطى كانوا يطلقون على جميع فئات الغزاة المسلمين اسم: الوثنيين. وهذه عقيدة أبعد عن الوثنية من الإسلام الذي حطم الأصنام.

والواقع أن الإسلام ينادي بعبادة إله واحد لا شريك له خالق السماوات والأرض. ولشدة استفظاع الإسلام للوثنية، فإنه يمنع تصوير كل ما هو حي.

وقد زعم كاتب التاريخ المنسوب إلى رئيس أساقفة تورين، أنه يوجد في الأندلس على شاطئ البحر، فوق عمود شديد الارتفاع، صنم من البرونـز صنعه محمد بنفسه، ويعبده المسلمون!

كذلك ادعى فيلومين في تاريخه القصصي حول غزوة شارلمان لمقاطعة لانجدوك، أنه كان يوجد تمثال لمحمد مصنوع من فضة مذهبة في مدينة أربونة، وضع في معبد أثناء احتلال المسلمين لهذه المدينة...

فيا لسخرية القدر، والجهل الأعمى بالإسلام! فإن هؤلاء الكتاب والأدباء، يجهلون أنه عندما فتح محمود الغزنوي الهند في سنة 1025م (416هـ)، حطم جميع أصنام الهند الكثيرة فيما عدا صنم واحد عرض عليه السكان شراءه بوزنه ذهبًا، ورفض عرضهم مفضلًا وضعه عند عتبة باب العاصمة الرئيسي، لكي يدوس عليه ويبصق عليه كل داخل إلى العاصمة وكل خارج منها.

ما هو السبب الذي دفع آباءنا إلى هذا الوهم والخطأ، يا ترى؟

ذهب بعض العلماء إلى أن النورمانديين وغيرهم من الشعوب الوثنية، كانوا ضمن الشعوب التي كان يشملها اسم: سارازين، وبالتالي، فإن موطن أسماء مثل تيرفاجنت وأبولين وغيرها هي البلاد الشمالية، الذين كانوا يعبدون الأوثان.

وهكذا خلط العامة بين المسلمين وهذه الشعوب بصورة مخجلة([[15]](#footnote-15)).

ولنكمل الآن، استعراض نبوءة أشعياء، فنجدها تقول:

1. يسود الدين وتكتمل الشريعة التي جاء بها في عهده، لا من بعده:«لا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق في الأرض وتنتظر الجزائر شريعته».

ولقد وعد الله نبي الإسلام أن يتم الأمر الذي جاء به، فقال:

﴿**يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**﴾ **[التوبة: 32]**.

ولقد أكمل الله الدين في حياة النبي حتى إذا توفاه الله ترك الأمة الإسلامية على المحجة البيضاء ليلها كنهارها. لقد اكتمل الدين ونـزل القرآن يقول:

﴿**الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: 3]**.

1. يعصمه الله من الناس حتى يكمل رسالته فتنتهي حياته بالموت الطبيعي الذي هو نهاية كل مخلوق حي، فلا يموت قتلًا:«أنا الرب قد دعوتك بالبر فأمسك بيدك وأحفظك وأجعلك عهدًا للشعب ونورًا للأمم».

ولقد طمأن الله نبي الإسلام ألا يلتفت إلى مؤامرات الكائدين له، فالله عاصمه من الناس حتى يبلغ الأمر غايته.

ولقد نـزل القرآن ليعلن هذا التحدي على رؤوس الأشهاد:

﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنـزلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ**﴾ **[المائدة: 67]**.

1. ينتسب النبي إلى إسماعيل بن إبراهيم:«لترفع البرية ومدنها صوتها، الديار التي سكنها قيدار». وقيدار هذا هو الابن الثاني لإسماعيل (تكوين 25: 13).

\*

1. الشعب الذي ظهر فيه كان عبدة أوثان، أصحاب أصنام:«يخزي خزيًا المتكلون على المنحوتات القائلون للمسبوكات أنتن آلهتنا».
2. رجل حروب مقدام ينتصر على أعدائه:«الرب كالجبار يخرج. كرجل حروب ينهض غيرته، يهتف ويصرخ ويقوى على أعدائه».

ولقد سجل القرآن المعارك الكبرى في الإسلام، وكان النبي هو القائد والمخطط والمحارب حين البأس:

﴿**وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 121]**.

﴿**فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا﴾ [النساء: 84]**.

إن هذا أمر اختص به أولوا العزم من الأنبياء والمجاهدين.

ولقد كان ذلك أمر موسى بعد أن خرج ببني إسرائيل من مصر، وانتهت مرحلة في جهاده وبدأت مرحلة أخرى، فآنذاك «كلم الرب موسى في برية سيناء»... في السنة الثانية لخروجهم من أرض مصر قائلًا: أحصوا كل جماعة بني إسرائيل. من ابن عشرين سنة فصاعدًا. كل خارج للحرب في إسرائيل، تحسبهم أنت وهارون حسب أجنادهم ويكون معكما رجل لكل سبط، وهو رأس لبيت آبائه».

وجدير بالذكر أن رجل الحرب من الأسماء الحسنى التي تنسبها التوراة لله. فقد قال موسى وبنو إسرائيل في تسبيحة لله شكرًا بعد نجاتهم من مطاردة فرعون وجنوده، وغرق الأخيرين:

«هذا إلهي فأمجده.. الرب رجل الحرب: الرب اسمه - خروج 15: 2 - 3».

1. في مناسك دينه هتاف من رؤوس الجبال وتسبيح وتكبير: من رؤوس الجبال ليهتفوا، ليعطوا للرب مجدًا ويخبروا بتسبيحه في الجزائر».

لقد بني الإسلام على خمسة أعمدة خامسها الحج، وفيه يعقد أكبر مؤتمر ديني عالمي سنويًا بجبل عرفات، وقد جعلت الوقفة بهذا الجبل ركن الحج الركين، إذ قال نبي الإسلام:«الحج عرفة» فهناك يهتف الحجاج لله فوق جبال عرفات ويسبحون ويكبرون ويهللون ويتضرعون بالدعوات وصالح العبادات، وما أعظمه من نسك.

وفي الحج - يتجرد الإنسان عن زخرف الحياة ومتعها، إذ يحرم عليه ممارسة بعض ما اعتاده في حياته الزوجية الصالحة مثل العلاقة الجنسية، والتحلي بأفخر الثياب، وعوامل الصخب والإثارة.

هناك يواجه الإنسان الحقيقة بين يدي خالقه فيأتي هذه التجربة العظيمة طوعًا في الدنيا قبل أن يأتيها كرهاُ في الآخرة فآنذاك لا ينفع الندم ولا تجدي الحسرات.

﴿**الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ \* لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ [البقرة: 197، 198]**.

\*

1. الشعب الذي ظهر فيه كان متخلفًا ضعيفًا طعمة لكل آكل:«شعب منهوب ومسلوب، وقد اصطيد في الحفر كله وفي بيوت الحبوس اختبؤوا، صاروا نهبا، ولا منقذ، وسلبًا، وليس يقول رد».

ويقول القرآن:﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آَيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ \* وَآَخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الجمعة:2- 4]**.

\*

1. ولكن بعد أن جاءهم النبي برسالة الله خرجوا من الظلمات إلى النور:«لتفتح عيون العمي، لتخرج من الحبس المأسورين، من بيت السجن الجالسين في الظلمة.

أسيِّر العمي في طريق لم يعرفوها. في مسالك لم يدروها أمشيهم. اجعل الظلمة أمامهم نورًا والمعوجات مستقيمة. هذه الأمور أفعلها ولا أتركهم».

ويقول القرآن:﴿**الر كِتَابٌ أَنـزلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: 1]**.

﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آَمَنُوا قَدْ أَنـزلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آَيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الطلاق: 10 - 11]**.

إن تجربة الإسلام في عرب الجزيرة العربية نموذج فريد في التاريخ، وأذكر في هذا المقام مقالة للمؤرخ الانجليزي أرنولد توينبي قال فيها: لكي ندرك ما فعله الإسلام بالعرب - بمقاييس العصر - نتصور دولة في حجم كوبا تظهر فجأة، ثم تستولي على نصف الولايات المتحدة الأمريكية وتخضع لها روسيا بأكملها.

ومن الواضح أن توينبي ضرب المثل بهاتين الدولتين الكبيرتين باعتبارهما القوتين الأعظم في النصف الأعظم في النصف الثاني من القرن العشرين، ويناظرهما في القرن السابع الميلادي: الإمبراطورية الرومانية، والإمبراطورية الفارسية على الترتيب.

\*

1. هو نبي البر الذي يعظم شريعة الله:«الرب قد سر من أجل بره، يعظم الشريعة ويكرمها».

إن نبي الإسلام ورحمته بالناس جميعًا أمر يشهد به الجميع حتى من غير المسلمين، ومنهم عتاة تطاولوا على الإسلام ونبيه.

ولقد حدث أن مرت جنازة يهودي فوقف النبي  تكريمًا للأخوة الإنسانية، فإذا ببعض الصحابة يقول له: إنها ليهودي - وقد علم ما أصاب النبي والمسلمين من أذى على يد اليهود تمثل في مؤامرات وفتن وحرب نفسية وحروب دموية - فأمسك عليه النبي اعتراضه قائلًا: أليست نفسًا؟! وصدق الله:﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107]**.

\* \*

ولنراجع الآن نبوءة أشيعا هذه، فنجدها تتعلق بثلاثة عناصر رئيسية هي: النبي المنتظر، والشعب الذي ظهر فيه، والدين الذي جاء به. فلهذا النبي شريعة تنتظرها الجزائر، وهذا بالتأكيد يعني شريعة جديدة غير شريعة موسى. بل إن هذا ما تنبأ به أشعيا في موضع آخر من سفره، إذ يقول وحي الرب على لسانه:

«شريعة من عندي تخرج، وحقي أثبته نورًا للشعوب إياي ترجو الجزائر، وتنتظر ذراعي - أشعيا 51: 4- 5».

وإذا جمعنا الأوصاف العامة والملامح الرئيسية لكل عنصر من عناصر نبوءة أشعيا، وقرأناها معًا لجاءت كالآتي:

عن النبي المنتظر:

يشتهر بلقب عبدالله ورسوله - وينتسب إلى إسماعيل بن إبراهيم - ويعصمه الله من الناس حتى يكمل رسالته، فتنتهي حياته بالموت الطبيعي الذي هو نهاية كل مخلوق حي، فلا يموت قتلًا - وهو رجل حرب مقدام، ينتصر على أعدائه - ثم هو نبي البر الذي يعظم شريعة الله في كل صورها.

\*

.... وعن الشعب الذي ظهر فيه:

عبدة أصنام. وأصحاب أوثان - وكانوا شعبًا متخلفًا ضعيفًا، طعمة لكل آكل - ولكن بعد أن جاءهم النبي برسالة الله خرجوا من الظلمات إلى النور.

\*

.... وعن الدين الذي جاء به:

يسود الدين، وتكتمل الشريعة التي جاء بها، في عهده لا من بعده- وهو دين من مناسكه: هتاف من رؤوس الجبال وتسبيح وتكبير وهذا ما يحدث في الحج إلى بيت الله الحرام بمكة كل عام.

\*

وإذا استعرضنا خصائص الأنبياء منذ نطق أشعيا بهذه النبوءة في منتصف القرن الثامن قبل الميلادي، حتى مطلع القرن السابع بعد الميلاد، وما وجدناها تنطبق تمامًا إلا على محمد رسول الله.

\*

من أجل ذلك سار أبناء إسماعيل يعلنون دين الله إلى العالم كله: شرقًا حتى الصين، وغربًا حتى الأطلسي، وشمالًا حتى أوروبا. وصدقت فيهم نبوءة أشيعا حرفيًا، إذ يقول الرب:

(أسير العمي في طريق لم يعرفوها. في مسالك لم يدروها أمشيهم، أجعل الظلمة أمامهم نورًا. والمعوجات مستقيمة. هذه الأمور أفعلها، ولا أتركهم).

لقد كان هذا ما نطقت به أسفار العهد القديم، وحسب المعتقدات المسيحية:(لا بد أن يتم جميع ما هو مكتوب).

(ويتم ما قيل بأشعيا النبي).

وإننا لنجد في القرآن تأكيدًا لوجود هذه التنبؤات في أسفار السابقين، حيث تستخدم لغة الفعل المضارع، وليس الفعل الماضي الذي اندثر وضاع - فيقول:﴿**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آَمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنـزلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: 157]**.

فلا بد، إذن، أن تتحقق كل التنبؤات.

\* \*

ونختم الحديث عن الفتوحات الإسلامية وأثرها في تحرير شعوب، وإقامة حضارات، برأي لمؤرخ مصري معاصر هو الدكتور عبدالعظيم رمضان يعرض فيها رؤيته لحركة التاريخ وحكمتها وانعكاساتها، خلال فترات مختلفة، فيقول:

«من المفارقات التاريخية أن الغزو الذي تعرضت له بعض الأمم قد خدمها بأكثر مما كان أن يخدمها تفادي الغزو! والعكس بالعكس، فإن كثيرًا من الأمم قد خسرت بسبب تفادي الغزو ما لم تكن لتخسره لو تعرضت له».

وعلى سبيل المثال: فإن نجاح القبائل الجرمانية في العصور القديمة في إبادة ثلاث فرق رومانية وتحرير بلادها من الحكم الروماني في عام 9 قبل الميلاد، لم يكن في مصلحة ألمانيا! فقد قررت التخلي عن خطة جعل حدود الإمبراطورية عند نهر البو، وجعلتها عند نهر الراين الذي أصبح فاصلًا بين الأراضي الفرنسية والأراضي الألمانية، وبذلك حرمت ألمانيا من التمتع بالحضارة الرومانية والطرق الرومانية الشهيرة واستسلمت للبربرية قرونًا عديدة!

وعلى العكس من ذلك، فإن دخول الجيوش المصرية اليمن، وتعزيزها الثوار ضد حكم الإمامة الرجعي الفاسد، قد نقل اليمنيين من العصور الوسطى إلى العصر الحديث. ولو نجحت القبائل اليمنية في إخماد الثورة، وأعادت حكم الإمامة لاستسلمت للتخلف كما استسلمت القبائل الجرمانية تمامًا، لعدد لا يعرف من عقود السنين!

وقد كان دخول آلة الطباعة مع الحملة الفرنسية لأول مرة، هو رمز انتهاء تلك العزلة. فحتى وصول الفرنسيين إلى الإسكندرية، لم يكن قد طبع في مصر سطر واحد، وبالتالي لم تكن قد عرفت بعد الصحافة، ولم تكن قد عرفت المطبوعات في مجال العلوم والفنون والآداب، وبالتالي أيضًا لم تكن قد أطلت بعد على الحضارة الغربية، وانتهلت من مواردها.

وفي الوقت نفسه لم تكن مصر قد عرفت بعد كنوزها القديمة وآثارها الفرعونية، لم تكن تعرف من قيمة لتلك الأحجار المنقوش عليها الكتابات المصرية القديمة أية فائدة أو قيمة - اللهم إلا فيما عدا احتمال استخدام أصلبها للبناء! كما لم تكن تعرف أية فائدة أو قيمة للفائف البردي، وكانت جميع النقوش والكتابات الهيروغليفية بالنسبة لها طلاسم ومعميات، لا تعني نفسها بمحاولة فهمها، وبالتالي لم يكن المصريون حتى ذلك الحين يعرفون شيئًا عن تاريخ مصر القديمة وديانتها وعاداتها وتقاليدها.

وبطبيعة الحال فلست أقصد من هذا الكلام حث الشعوب على الترحيب بالغزاة الأكثر تحضرًا، وإنما أنا فقط أنبه إلى هذه المفارقة، لأن ما مضى قد مضى، وعلى الشعوب أن تستلهم ضميرها القومي وكرامتها الوطنية وهي تقاوم كل معتد وغاز([[16]](#footnote-16)).

نعم... على الشعوب التي تتعرض لغزو، أن تقاومه في سبيل حريتها.

وقد تكون المقاومة بالسلاح والدماء، أو قد تنهج مسالك أخرى مثل الاستفادة من توازن القوى المؤثرة في الصراع الدائر في منطقتها، وغير ذلك من الأساليب التي يحفل بها تاريخ الدول والشعوب.

وقد تكفي شرارة الغزو، واحتكاك النظم والحضارات المختلفة، في إيقاظ الأمم والشعوب، وتبادل المعارف والخبرات.

﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ **[الحجرات: 13]**.

# **بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية**

نعرض في هذه الدراسة الموجزة لبعض البحوث التي قام بها نخبة من علماء الغرب ومفكريه عن خصائص الحضارتين الإسلامية والغربية. ولسوف يجد القارئ أن كثيرًا من هؤلاء العلماء قد أحاطوا علمًا بالحضارة الإسلامية واستوعبوها أكثر من كثير من المسلمين، وخاصة تلك العصابات الثقافية التي تتصدر الجزء الأكبر من ساحة الريادة الفكرية والتربوية والإعلامية على امتداد العالم الإسلامي كله، ولا هم لها إلا التنكر للإسلام وطمس معالم الحضارة الإسلامية.

\* \*

## أولًا: الحضارة الإسلامية قامت على الإسلام:

1. يقول هربرت فيشر([[17]](#footnote-17)) في كتابه: تاريخ أوروبا:

«لقد وصلنا الآن إلى نقطة يصبح عندها تاريخ أوروبا معقدًا بسبب انتصارات الدين الإسلامي. ففي خلال القرون الستة الأولى من التقويم المسيحي ما كان يمكن لأي سياسي متميز في أوروبا بأن يجد فرصة يتذكر بلاد العرب».

ولكن ما إن انقضت مائة عام حتى استطاع هؤلاء المتوحشون المغمورون أن يصبحوا قوة عالمية عظمى.. وما بين أحد طرفي أوروبا حتى طرفها الآخر، وجدت الدول المسيحية نفسها تواجه التحدي من حضارة شرقية جديدة تأسست على دين شرقي جديد([[18]](#footnote-18)). وخلال السنوات الأولى من التوسع العربي، ما كان الفاتحون في حاجة إلى بذل مجهود كبير لكسب مهتدين إلى الإسلام. فعلى العكس من ذلك كان نجاحهم في الحكم متوقفًا إلى حد كبير على سياستهم الحكيمة في التسامح التي مارسوها تجاه اليهود والمسيحيين...

وهكذا انتشرت الحضارة الإسلامية، وكانت مراكزها السياسية: في دمشق تحت حكم الأمويين، وفي بغداد تحت حكم العباسيين، وفي مصر تحت حكم الفاطميين.. ولقد ساهم فيها السوريون والفرس والترك والبربر والأسبان ليقدموا جميعًا([[19]](#footnote-19)) العصر الرائع للآداب والفنون الإسلامية، والتي مكنت شعوب الإسلام من السيادة الفكرية للعالم طيلة أربعة قرون، بينما كان العقل الأوروبي غارقًا في قيعان الجهل والكسل([[20]](#footnote-20)).

\* \*

1. ويقول برنارد لويس([[21]](#footnote-21)) عن: الإسلام منذ الأمس حتى اليوم:

إن المسيحية في إخلاصها إلى «إنسان - إله» إنما تلهم مثلًا عليا دنيوية، بينما الإسلام في إخلاصه للقرآن إنما هو حضارة، إذ لا يمكن فصل محتواه الديني عن تنظيم حياة البشر، ذلك التنظيم الذي كان يوضع موضع التنفيذ فورًا بمجرد التنـزيل.

واليهودية مثلها مثل المسيحية، كانت كل منها برحلة سابقة في نفس سلسلة الوحي الإلهي، وكانتا في أول أمرهما ديانتين صحيحتين، ولكن بالنسبة للمسلمين فإن بعثة محمد قد نسختهما. فما كان فيهما من حق فقد احتوته رسالة النبي، وما كان فيهما من غير الحق، إنما جاء نتيجة لما لحق بهما من تحريف وعلى المستوى الديني، يعتبر الإسلام هو النهاية. ولكن ومن الوجهة التاريخية، يمكن النظر إليه باعتباره بداية.

فقد كان تأسيسًا لدين جديد، وإمبراطورية جديدة، وحضارة جديدة([[22]](#footnote-22))،... ويزعم أحيانًا أن الدين الإسلامي قد فرض بالقوة، إن هذا القول غير صحيح «لقد قامت حضارة أصيلة مستوحاة من العقيدة الإسلامية، ومتمتعة بحماية الدولة الإسلامية، ومدعمة بثراء اللغة العربية. حضارة تنمو وتتسع وتعيش طويلًا، وقد صنعها الرجال والنساء من مختلف الأعراق والديانات، وقد اصطبغ كل شيء فيها بالعروبة والمبادئ والقيم الإسلامية»([[23]](#footnote-23)).

1. ويقول مارسيل بوزار([[24]](#footnote-24)) في كتابه: إنسانية الإسلام:«في كلمة موجزة، فإن الإسلام حضارة أعطت مفهومًا خاصًا للفرد، وحددت بدقة مكانه في المجتمع وقدمت عددًا من الحقائق الأولية التي تحكم العلاقات بين الشعوب. كما أن هذه الحضارة لم تقدم فقط مساهمتها التاريخية الخاصة في الثقافة العالمية، ولكنها تؤكد أيضًا، ولها مبرراتها، على تقديم حلول للمشاكل الرئيسية للأفراد والمجتمعات والمشاكل الدولية التي تثير الاضطرابات في العالم المعاصر».

إن الإسلام هو اتصال بين الله كإله وبين الإنسان كإنسان فالإسلام تسليم يقيني نشط وعن طوعية إلى المشيئة الإلهية.

ومن الناحية التاريخية، فلقد أنجب هذا الدين «أمة»، وأوجد أسلوبًا للحياة والعمل والتفكير، وفي كلمة واحدة: فقد أنجب حضارة.

ويدل التاريخ على وجود حقيقة ثابتة مثالية في الحضارة الإسلامية، التي كانت منذ بدئها ولا تزال، متوجهة توجهًا كاملًا نحو الله([[25]](#footnote-25)). وهذه الظاهرة التي تغيب دائمًا عن الفكر والتحليل الغربي الحديث، تعطي للإسلام طابعه المتميز بالدوام. وربما كان ديكارت الذي تغذي فلسفته ومنهجيته التفكير اليومي لأوروبا، قد قام بإحداث شق يعتبر واحدًا من أكثر الشقوق عمقًا بين الشرق والغرب. ففي اختياره للاتجاه العقلاني فإنه حول الثقافة الأوروبية من ثقافة تعتبر «الإله مركز الكون - THEOCENTRIQUE» إلى ثقافة تعتبر «الإنسان مركز الكون - ANTHROPOCENTRIQUE» ويبقى الله هو المرجع الرئيسي في الفكر الإسلامي([[26]](#footnote-26))، سواء في علوم الدين أو القانون أو السياسة. ويضطلع الدين بصورة مباشرة بتنظيم الحياة الروحية والزمنية للفرد والجماعة، رافضًا وساطة كهنوت كان سيتصرف على هواه ويحتكر الدين. والإسلام دين المطلق الإلهي والعقلاني، وعلى العقل البشري أن يتوافق والمنهاج الموحى به»([[27]](#footnote-27)).

\*

«وإذا كان العالم الإسلامي قد أظهر أنه لم يكن قادرًا على الحفاظ على وحدته السياسية، فإن الإسلام - على العكس من ذلك - قد عرف كيف يرينا مقدرة رائعة على الحفاظ على ترابطه الديني الذي بقي سليمًا تقريبًا، رغم حدوث شقاقات.

وتظهر الرسالة القرآنية وتعاليم النبي أنها تقدمية بشكل جوهري. وتفسر هذه الخصائص المميزة. انتشار الإسلام السريع بصورة عجيبة خلال القرون الأولى من تاريخه([[28]](#footnote-28)).

ومن المفيد أن نسجل إلى أي مدى يؤثر مفهوم معين للعالم والإيمان بمصير عالمي للإنسانية، في طبع السلوك اليومي لملايين الأنفس من البشر. ولا يمكن لأي طريقة مثلى (أيديولوجية) معاصرة أن تدعي منافسة الإسلام في هذا الصدد»([[29]](#footnote-29)).

\* \*

## ثانيًا: الحضارة الإسلامية عالمية التوجه والمحتوى:

نظرًا لأن الإسلام دعوة عالمية، فقد كانت الحضارة التي أقامها عالمية التوجه والمحتوى، ففي الإسلام وحضارته نجد العلاقات واضحة ومحددة بين الله والكون والإنسان، وهي في صورتها العامة تحقق: الوحدة والتوازن (العدل) والانسجام.

\*

1. يقول مارسيل بوازار:«عندما يكون الدين مؤسسًا على عقيدة راسخة تمامًا في توحيد الله؛ فإنه ينمي تحقيق عالم متوافق تحكمه شريعة فريدة عالمية ثابتة بلا تغيير. ولسوف يستأثر الإسلام بتفكيرنا، بصفته أولًا دينًا أو مثلًا أعلى مطلقًا، ومنهجًا للتفكير والعمل للفرد والجماعة، وهكذا شهد القرن السابع الميلادي نـزول الوحي النهائي والثابت وتأسيس المدينة الإسلامية».

إن الغرب في مواجهته لمشاكل الحياة المادية والتطور العلمي، فقد الإحساس بما فوق الطبيعة إلى حد كبير. وهو يتعجب أنه لا يزال في وسع المقدسات أن تقدم مبادرات لمجهودات ذهنية ذات قيمة، وأسس محتملة لعملية تنظيم اجتماعي. والإسلام يتمثل في الإيمان بالمطلق وبوجود نظام أسمى متوافق. والعالم نفسه نظام أخلاقي: والمطلق واقع حق ذو معيار أساسي ومثالي، لا يتجزأ ولا يدرك كنهه: هو الله الذي يعتقد المسلمون أنه تجلى للناس عن طريق الأنبياء. ويكمن الخير الأسمى في أن يتوافق الإنسان مع نفسه مع هذا النظام الإلهي. ويعتبر الشر كل ما من شأنه أن يمنع التوافق والوحدة مع هذا النظام.

ويظهر الإسلام من هذا المنظور الأساسي: دين اليقين والتوازن.

إن الحقيقة الصحيحة المنقطعة النظير، وهي وحدانية الله، تتطلب بالضرورة تحقيق وحدة متوازنة للإنسان والمجتمع البشري. والله في الإسلام، على عكس إله الإنجيل، لا يتجسد للبشر. ولا يوجد بينه وبين الإنسان شفيع ولا وسيط ولا كنيسة ولا كهنوت. وهو المرجع الوحيد والمطلق. وهو المبتدأ وإليه المنتهى والمصير المقدر لأولئك المؤمنين به وبنبيه محمدًا. ويكون الفرد جزءًا مكملًا لجماعة المؤمنين التي تشكل أخوة يقوم المعيار الوحيد للقبول بها على الإيمان. ويرسي اليقين والاعتزاز بامتلاك الحقيقة أساسيات التضامن الإسلامي أكثر مما يفعله القانون والهيئات الاجتماعية.

لقد كان هذا الدين حافزًا على تشكيل كيان متميز لم تستطع تقلبات الزمن والاحتكاك بالحضارات المختلفة أن تفت في عضده على مر العصور. إن الشعور المتيقظ بالانتماء إلى كيان متميز، والوعي النشيط بامتلاك الحقيقة قد خلق حضارة خاصة بالمسلمين، فرضت تعريفًا خاصًا للفرد والدولة والعالم. إن كل شيء في الإسلام يعبر عن وحدة. ففروض العبادة تعبر بطريقة ظاهرة، بل بطريقة مادية، عن التماسك والالتحام.

فالمسلمون يسجدون في صلواتهم التي يقيمونها خمس مرات يوميًا في ساعات متماثلة تقريبًا وفي اتجاه واحد نحو مكة، وتعبر النية الدينية المصاحبة للممارسات البدنية المصاحبة لهذه الشعيرة، عن وحدة الإنسان روحيًا وماديًا. وفوق ذلك نجد أن القرآن يذكر إقامة الصلاة مقرونة بإيتاء الزكاة التي هي فرض ديني وحق متبادل من شأنه أن يوحد جماعة المؤمنين.

كما أن صيام رمضان يربط بشكل رمزي كل المؤمنين، إذ يمتنعون عن الطعام والشراب حسب توقيت متماثل. وأخيرًا فإن الحج هو أبرز مظاهر الوحدة بين الجماعة يعتنق أفرادها دينًا واحدًا.

ويسهم الإيمان كما تسهم الشعائر التي تربط الإنسان مباشرة بالله، في تضامن الجماعة الإسلامية وتجانسها، وتدفعها جميعًا نحو تحقيق عالميتها.

إن جماعة المؤمنين، وقد قامت على الدين، فإنها نجحت في الصمود أمام التفكك السياسي، كما أن الروابط الدينية التي تسمو فوق التخوم والحدود بين الدول، لم تتأثر كثيرًا بذلك التفكك السياسي»([[30]](#footnote-30)).

\*

1. و يقول روجيه دي باسكيه([[31]](#footnote-31)) في كتابه: اكتشاف الإسلام:

«لقد جاء الإسلام إلى الناس لمساعدتهم على عبور هذه المرحلة الأخيرة من التاريخ العالمي دون أن يتعرضوا للضياع.

وباعتباره الوحي الأخير في سلسلة النبوات، فإنه يقدم وسائل لمقاومة الفوضى التي تسود العالم حاليًا، وإقرار النظام والنقاء في داخل الإنسان، وإيجاد التآلف والانسجام في العلاقات الإنسانية، وتحقيق الهدف الأسمى الذي من أجله دعانا الخالق إلى هذه الحياة. إن الإسلام يخاطب الإنسان الذي يعرفه معرفة عميقة ودقيقة، محددًا بالضبط وضعه بين المخلوقات وموقفه أمام الله.

إن الفكر الحديث على العكس من ذلك، إذ ليس لديه معلومات دقيقة متفق عليها تتعلق بعلم الإنسان. ولم يحدث في حضارة أخرى غير هذه الحضارة الغربية أن حدث تجاهل بطريقة منظمة وشاملة للتساؤل عن الأسباب التي من أجلها نولد ونعيش ونموت. وذلك هو التناقض الذي وقعت فيه هذه الحضارة التي ارتأت منذ نشأتها أن تكون إنسانية بمعنى أنها جعلت من الإنسان مصدر كل شيء ونهايته. إن هذه الحضارة التي أريد لها أن تكون إنسانية، إنما تقود في نفس الوقت إلى نظام يحتقر الإنسان ويخدعه ثم يدمره في نفس الوقت إلى نظام يحتقر الإنسان ويخدعه ثم يدمره في نهاية المطاف. إن الإسلام بأبعاده الأفقية والرأسية قادر على عمل توافق قوي بين الإنسان والكون المحيط به، وكذلك بين الإنسان والإله خالق كل شيء ومبدعه. إن الإسلام عالمي بكل معنى الكلمة.

وإن الغرب المسيحي، أو الذي فقد مسيحيته. لم يعرف الإسلام أبدًا.

فمنذ ظهر الإسلام على المسرح العالمي، والمسيحيون لا يكفون عن اختلاق الأكاذيب حوله وتحقيره من أجل إيجاد المبررات لقتاله. ولقد ألحقت بالإسلام صور مشوهة كثيرة لا تزال آثارها منطبعة بعمق في العقلية الأوروبية إلى اليوم.

إن الإسلام يقيم مصالحة بين الإنسان ونفسه، كما يقيمها بينه وبين الكون. وبهذا يقدم الدواء الناجح لعلاج الشر في هذا العصر. إن الإسلام لا يحرم على الناس الاستمتاع الكامل بكل نعم الله التي أسبغها عليهم شريطة أن يكونوا شاكرين له:

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ**﴾ **[البقرة: 172]**.

والإسلام كدين توازن، يجعل الإنسان يعمل من أجل خيري الدنيا والآخرة، آخذًا في الاعتبار أن الآخرة خير وأبقى:

﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآَخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا**﴾ **[القصص: 77]**.

﴿**وَلَلْآَخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ [الضحى: 4]**.

وإذا كان الإسلام يضع الناس على طريق الآخرة التي هي خير وأبقى، فإنه يوفر له وسائل الاستمتاع بأفضل ما في هذه الحياة، وذلك بتنظيم التوافق بينه وبينها على المستويين الفردي والجماعي. إن مشيئة الله أن يكون الناس سعداء في النهاية وذلك عن طريق إسلامهم لله. إن كلمة الإسلام - في العربية - تعني التسليم لله، وهي ذات صلة لغوية بكلمة السلم والسلام.

وفي حقيقة الأمر، فإن التسليم لله يحقق السلام، وهو شرط لازم لتحقيق السعادة»([[32]](#footnote-32)).

\* \*

## ثالثًا: الحضارة الغربية قامت على نبذ المسيحية:

تقوم الحضارة على حرية الفكر وطلب وإشاعة المعرفة وإذا كان عدد قليل من الفرنسيين قد استطاع الاغتراف من معين الثقافة والعلوم العربية في الأندلس، فلقد ظلت أغلب الشعوب الأوروبية غارقة في ظلمات الجهالة والتخلف حتى إذا جاءت الحروب الصليبية ابتداء من القرن الثاني عشر ووقع الاحتكاك بين الإسلام والمسيحية، بدأت الشعوب المسيحية الغربية تخرج من سباتها العميق بعد أن تحققت من تفوق الشعوب الإسلامية وحضارتها الزاهرة. واتجه المسيحيون الغربيون إلى أسبانيا وصقلية وغيرها من مراكز الحضارة الإسلامية ليتعلموا مختلف العلوم باللغة العربية التي كانت لغة العلم في أوروبا في ذلك الوقت، ثم ينقلونها بعد ذلك إلى اللاتينية.

وكان ذلك هو الأساس الذي قامت عليه الحضارة الغربية الحديثة.

لكن روح اليقظة هذه التي بدأت تسري في أوروبا اصطدمت مبكرًا بالكنيسة ورجالها وتعاليمها التي تتدخل في كافة مناحي الحياة الفردية والجماعية. ويكفي التذكرة هنا بتعاليم الكنيسة التي كانت تصدرها بين الحين والحين. ومنها ما عرف باسم:«المكفرات»، وهي إرشادات لرجال الدين حول الحكم في مختلف خطايا المؤمنين. وفي هذه التعاليم، تفرض الكنيسة قيودًا على ممارسة الجنس بين الزوجين.

فلقد حظرت ممارسة الجنس أثناء: حمل المرأة، والرضاعة، وأثناء الصوم الكبير، وأيام الآحاد الأربعة السابقة للميلاد، وقبل تناول العشاء الرباني...! وما كان لكنسية تفكر بهذه الطريقة، أن تقبل تحرير الفكر بعيدًا عن سلطانها، ولهذا بدأت معركتها مبكرة ضد أحرار الفكر - وفيهم كثير من رجال الدين - وعلماء العصر، ولهذا انطبعت الحضارة الغربية بالعداء بين العلم والدين، وذلك على العكس تمامًا من الحضارة الإسلامية التي قامت على الدين.

يقول الفيلسوف البريطاني برتراند رسل في مقال له بعنوان: كيف أعاقت الكنائس التقدم:

«قد تظن أيها القارئ أنني أذهب بعيدًا عن الواقع إذا قلت لك إن هذا لا يزال واقع الحال. فهناك طرق كثيرة جدًا تتبعها الكنيسة في الوقت الحاضر، لإنـزال البلايا وصنوف من العذاب التي لا داعي لها بمختلف أنواع البشر، وذلك بإصرارها على ما قد اختارت أن تسميه الأخلاقيات. وكما نعلم جميعًا، فإن الكنيسة لا تزال في أغلبها تعادي التقدم وكل ما من شأنه تخفيف معاناة العالم، فهي قد اعتادت أن تطبع مجموعة من قواعد السلوك المتزمت والتي لا علاقة لها بسعادة الإنسان، بما تسميه الأخلاقيات.

يجب علينا أن ننهض ونتدبر واقع أمر العالم. إن العالم المليء بالخير يحتاج إلى المعرفة ورقّة العواطف والشجاعة. إنه يحتاج إلى نظرة جسورة وإلى عقل حر. إنه يحتاج إلى أمل في المستقبل.

لقد عارضت الكنيسة جاليليو. وفي الأيام التي بلغت فيها أعظم سلطانها، فإنها ذهبت إلى أبعد مدى في معارضة حياة العقل والتفكير. فلقد كتب البابا جريجوري الكبير (590- 604م) إلى أحد أساقفته رسالة يقول فيها:«لقد وصلنا تقرير لا نستطيع تذكره دون حمرة الوجه خجلًا: ذلك أنك تشرح قواعد اللغة (اللاتينية) إلى بعض الأصدقاء».

لقد اضطر هذا الأسقف، تحت سلطان صاحب القداسة، أن يكف عن ذلك العمل الشرير! ولهذا لم تنهض اللاتينية من عقالها إلا في عصر النهضة.

وكما يعلم كل الناس، فإن الكنائس قد عارضت بقدر الإمكان القضاء على العبودية، كما أنه خلافًا لبعض الاستثناءات، فإنها تعارض اليوم أي حركة تجاه العدالة الاقتصادية ويجب أن نذكر أنه في جميع العصور، بدءًا من عصر قسطنطين (القرن الرابع) حتى نهاية القرن السابع عشر فإن المسيحيين قد تعرضوا لاضطهادات رهيبة على يد مسيحيين مثلهم آخرين، أكثر بكثير مما تعرضوا له على أيدي الأباطرة الرومان!

حقيقة أن المسيحي المعاصر قد أصبح أقل غلظة، لكن الفضل في ذلك لا يرجع إلى المسيحية، وإنما يرجع إلى أجيال من أحرار الفكر، الذين جعلوا المسيحيين - يخجلون - منذ عصر النهضة إلى الآن - من كثير من معتقداتهم التقليدية»([[33]](#footnote-33)).

\* \* \*

## رابعًا: الكنيسة تحرق العلماء وأحرار الفكر!

منذ أن صارت المسيحية الدين الرسمي للإمبراطورية على عهد قسطنطين الكبير (325م) بدأت الكنيسة تقوى حتى جمعت في يدها السلطتين الدينية والدنيوية، فسيرت الجيوش الجرارة للحرب باسم المسيح، ومنحت بركاتها للملوك والأمراء الذين خضعوا لسلطانها، وقاتلت الذين خرجوا على إرادتها، وقتلت حرقًا وشنقًا كل من اعتبرته متمردًا على تعاليمها في الدين والدنيا. ولقد كان لدعاة الإصلاح والتقدم من رجال الدين ورجال العلم النصيب الوافر من الاضطهاد والملاحقة والإبادة.

وكان هذا السبب فيما اصطبغت به الحضارة الغربية من عداء بين العلم والدين، وهو ما جعلها تنكفئ على نفسها هربًا من الكنيسة وأربابها، فنبذت الإله الخالق واستبدلته بالإنسان المخلوق.

وكان هذا هو الضياع الأبدي ولا شك.

لقد كان دعاة الإصلاح الذين يعملون من أجل إعادة باب الاجتهاد في الدين على أساس إحلال العقل محل النقل، وإلغاء احتكار رجال الكنيسة كمفسرين وحيدين للوحي، وإلغاء دور القديسين كوسطاء بين الله والناس.

أما رجال الفكر الكنسي المتشدد فكانوا على العكس من ذلك، يرون ضرورة الاحتفاظ بالتقاليد والمفاهيم المتوارثة وإطاعتها طاعة عمياء، وأن أي مخالفة لذلك إنما هي هرطقة وكفر جزاؤهما الإحراق في الدنيا رحمة بالمذنبين، بدلًا من الإحراق الأبدي في الآخرة.

ويعبر عن هذا المنطق الرهيب توركويمادا (1420 - 1498)، رئيس محاكم التفتيش في أسبانيا، الذي كان (يبرر إحراق مئات الزنادقة والسحرة على الخازوق، وتعريف الزنادقة والسحرة وكل منشق على الكنيسة الكاثوليكية أو رافض لها في العقيدة أو السلوك أو المصالح، بقوله: نحن نحرقك في الدنيا رحمة بك حتى ننقذك من النار الأبدية في الآخرة)!

ولقد كان من نتيجة تطبيق هذا الفكر الكنسي الرهيب أن تعرض الكثير للتعذيب أو الإحراق أو كليهما معًا. ونكتفي بذكر عدد محدود من رجال الإصلاح الديني ورجال العلم الذين سحقتهم الكنيسة سحقًا.

1. في عام 1415 أحرقت الكنيسة جون هس أعظم واعظ بالإنجيل في بوهيميا، وقد كان رئيسًا لجامعة براغ التي كانت آنذاك أعظم جامعات أوروبا بعد باريس وأكسفورد.

ولقد أدين أمام مجمع كونستانس (1414- 1418) بتهمة الهرطقة وعومل في السجن بوحشية ثم أحرق حيًا!

1. في عام 1498، أحرقت الكنيسة الراهب الايطالي سافونا رولا الذي كان أول من بدأ حركة الإصلاح الديني في ايطاليا، وذلك بعد قرار حرمان أصدره البابا اسكندر السادس عام 1497.

وبعد محاكمة استمرت أربعين يومًا، استخدمت فيها كل أنواع التعذيب، أعدم وأحرقت جثته مع راهبين آخرين من أتباعه المخلصين، في فلورنسا.

1. وكانت «أول ترجمه إنجليزية للكتاب المقدس عملت بصورة مباشرة عن الأصل العبري والإغريقي، إنما كانت من عمل وليام تندال».

لقد واجه معارضة مريرة، واتهم بتعمد إفساد معنى الكتاب المقدس، وأمر بإحراق تراجمه للعهد الجديد باعتبارها تراجم زائفة.

وأخيرًا، سلم ليد أعدائه، حيث ثم إعدامه على رؤوس الأشهاد حرقًا بالشد على الخازوق، في أكتوبر 1536.

1. وفي عام 1553، أحرقت الكنيسة، في جنيف ميخائيل سارفيتوس الأسباني، ومعه كتابه: إعادة بناء المسيحية.
2. وفي عام 1600، أحرقت الكنيسة القس جوردانو برونو، في ميدان الأزهار (كامبو دي فيوري) بروما.

وكان من بين التهم الموجهة إليه: الزندقة والردة، والدعوة لنظرية كوبرنيك في الفلك القائلة بأن الأرض ليست مركز الكون، وأن الكواكب تدور حول محورها وحول الشمس، وهو ما يتنافى مع الجغرافيا والفلك كما استخلصتهما الكنيسة من الكتاب المقدس ومن أعمال أرسطو وبطليموس الجغرافي وكان من المتهم أيضًا، الاشتغال بالسحر، ويدخل في هذا الباب الدعوة إلى العلم للسيطرة على الطبيعة.

1. وفي عام 1642 مات الفلكي جاليليو في عزلته كمدًا، بعد أن أصيب بالعمى، فقد حاكمته الكنيسة، وحكمت عليه بتحديد إقامته بعد أن أعلن تبرأه من مفاهيمه العلمية حول الأرض وحركتها، والشمس والكون. فقال في اعترافه أمام المجمع المقدس عام 1633:(أستنكر هذه الأخطاء والزندقات المذكورة، وبوجه عام كل الأخطاء والزندقات والمعتقدات المتعارضة مع الكنيسة المقدسة).

\*

هذا بالإضافة إلى الاضطهادات الوحشية التي تعرضت لها الجماعات الدينية المخالفة، وخاصة ما كان بين الكاثوليك والأرثوذكس. ويكفي التذكرة هنا بأن الحملة الصليبية الرابعة خربت القسطنطينة التي فرح العالم الكاثوليكي بإخضاعها، إذ كان يسميها المدينة الملحدة! وقد ابتهج البابا أنوسنت الثالث، وأعلن في رسالته إلى بلدوين - الذي جرى تتويجه إمبراطورًا صليبيًا في كنيسة القديسة صوفيا - بأنه يطرب (لما صنعه الله)، وأعلن موافقته دون تحفظ.

\*

وأما ما كان بين الكاثوليك والبروتستانت فهو تاريخ دموي طويل، نذكر منه فقط على سبيل المثال:

1. في عام 1545 تم ذبح 400 من البروتستانت الولدويون في مقاطعة بروفانس في جنوب فرنسا.
2. وفي ليلة 24 أغسطس عام 1545 - عيد القديس برثولماوس - قتل 200 بروتستنتي في باريس ونحو 200 في بقية فرنسا.
3. وفي إنجلترا، أحرق الكاثوليك الأسقف البيوريتاني هوبر في كاتدرائيته في جلوستر يوم 9 فبراير عام 1555، كما أحرقوا الأسقفين ردلي، ولاتيمر في أكسفورد يوم 16 أكتوبر من نفس العام.

وكذلك أحرق الكاثوليك كبير الأساقفة كرانمر في أكسفورد يوم 21 مارس 1556.

1. وإذا تركنا الأحداث التي تبدو فردية أو محلية، نجد هناك حرب الثلاثين عامًا - من 1618 إلى 1648 - التي بدأت نتيجة لتعصي ملك كاثوليكي - فرديناند الثاني - كان يكره البروتستانت وأراد استئصالهم من مملكته. ولقد بدأت الشرارة في بوهيميا ثم ما لبثت أن امتدت إلى أغلب دول أوروبا، فشملت الإمبراطورية الألمانية وفرنسا وإنجلترا وهولندا والسويد والدنمارك ودويلات البلطيق وغيرها. ولقد استمرت هذه الحرب - بل الحروب - 30 عامًا أكلت الخضر واليابس وعانت فيها شعوب أوروبا المسيحية العذاب الأليم نتيجة التعصب المذهبي البغيض الذي زرعته الكنيسة.

\*

وهكذا، دمرت الحضارة الغربية الإنسان الذي جعلته محورها، فضلت الطريق بعد أن رأت نفسها قد استغنت عن الإله!

\* \* \*

## خامسًا: الإسلام لا يعرف الحكومة الدينية:

لقد أوجد الإسلام حضارة إسلامية، كما رأينا سلفًا، ونظرًا لكون الإسلام دينًا بلا كهانة، فقد ضمن للمسلمين، النجاة من مخاطر ما يعرف باسم الحكومة الدينية التي عرفها الغرب المسيحي قرونًا طويلة وعرف ما اشتهرت به من اضطهاد لأحرار الفكر ورجال العلم. إن هذه الحقيقة الخطيرة تغيب عن كثير من الكتاب والباحثين - إما جهلًا أو تجاهلًا متعمدًا - سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين.

\* \*

يقول مارسيل بوازار:«إن السيادة، حسب المصطلح الغربي - تعني سلطة وحيدة لا يعلى عليها، تجمع كل النـزعات والقوى داخل المجتمع. وأما في العقيدة الإسلامية، فإن الله هو المصدر الأسمى لهذه السيادة، والتعبير عن إرادته ماثل في القرآن. وليس للنبي ولا خلفائه والرؤساء الدينين أي سلطة إلا بالتفويض.

\* \*

ولما كانت الشريعة مفروضة على الجميع، فإن كل مؤمن هو خليفة الله في الأرض. وأولوا الأمر في المجالين الروحي والزمني (الديني والدنيوي) لا يملكون سلطة مطلقة، وإنما هي في خدمة الجماعة لتنفيذ أحكام الشريعة. وليس في وسعهم أن يدعوا أي عصمة في تفسير التوجيهات الإلهية، لأن هذه العصمة تكمن في إجماع الأمة.

إن الجماعة المسلمة لم تنشئ أبدًا، لا نظريًا ولا علميًا، حكومة دينية (ثيوقراطية)، كما زعموا ذلك في أكثر الأحيان بغير حق في الغرب. إن المصطلح ذاته (حكومة دينية) فيه مفارقة، فالخليفة ليس رئيسًا دينيًا. وفوق هذا لم يحدث أبدًا أن حكمت المجتمع الإسلامي طبقة كهنوتية لسبب واضح وهو أن الكنيسة مؤسسة غريبة عن الإسلام.

فالحكومة الإسلامية ليست حكومة «دينية» حيث أن صلاحيتها الوحيدة هي تطبيق الشريعة الموحى بها.

وهكذا تتميز السلطة هنا عن النظام الديمقراطي (الغربي) بالمعنى المتعارف عليه بوجه عام، لأنها تفرض نظريًا بعض المؤسسات، كما تفرض عمليًا عددًا من المعايير الأخلاقية. بينما تسمح الديمقراطية ذات الطابع الغربي أن يختار الناس المؤسسات والمعايير حسب الاحتياجات والرغبات السائدة في عصرهم»([[34]](#footnote-34)).

\* \*

ويقول برنارد لويس:«بالنسبة للمسيحي، يعترف بأن: يعطي ما لقيصر لقيصر، وما لله لله». أما بالنسبة للمسلم فإن الله هو قيصر، ولن يعترف بأي مصدر آخر للسلطة سوى الله.

إن الفصل بين السلطتين (الدينية والزمنية) غير موجود على الإطلاق في الإسلام. وفي روما كان قيصر هو الإله، وفي المسيحية تقاسم قيصر والله المسيحية، أما في الإسلام فالله هو قيصر»([[35]](#footnote-35)).

\* \* \*

حكومات الشعوب الإسلامية هي - إذن - حكومات مدنية قد تخطئ وقد تصيب. وظيفتها الرئيسية تطبيق شرع الله وإقامة العدل بين كل رعاياها - مسلمين كانوا أو غير مسلمين - وتنمية المجتمع وتحقيق الخير والرفاهية للجميع.

وإذا حدث أن قامت عصابة من الناس واستولت على الحكم في بلد - وليكن اسمه مثلًا: نفاقستان - وادعت أنها حكومة دينية تحكم باسم الإسلام، فإننا نقول لهؤلاء وأمثالهم كثير: أنتم جهلة منافقون لا تعرفون من الإسلام سوى القشور والديكور، وتستخدمون الإسلام ولا تخدمونه. والويل كل الويل للمنافقين وصدق الله:

﴿**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: 145]**.

\* \* \*

# **فصل المقال...**

إن الحضارة أخذ وعطاء. ولا يستطيع أحد من البشر اليوم - كائنًا من كان - ممن يعيش في هذا العالم المتواصل، أن يدعي أنه هو وحده صانع الحضارة سيد العالم ومدبر شئونه.

إن التاريخ خير شاهد على أن الحضارة دورات، كما أن قيام الإمبراطوريات وانهيارها دورات، وينطبق عليها ما ينطبق على الإنسان من تردده بين حالات: ضعف ثم من بعد ضعف قوة، ثم من بعد القوة ضعفًا وشيبة! ومتحضروا اليوم كانوا متخلفي الأمس، والعكس بالعكس. ولنذكر من التاريخ القريب حادثتين اثنتين، ومثلهما كثير. فمنذ نحو 400 عام فقط - عندما كان جنون الخوف من النساء المتشيطنات يجتاح أوروبا، ناقش برلمان باريس في عام 1578 قضية جان هارفيير التي سبق أن أحرقت أمها بزعم أنها تعاشر الشيطان جنسيًا! وباعتبارها ابنة لتلك الأم، فقد تعرضت للجلد بأمر البرلمان. ولقد اضطهدها المجتمع ونبذها، فأجبرت على التحرك من مسكن إلى آخر، وعلى تغيير اسمها، لدرجة أن اختلت قواها العقلية فاعترفت أنها كانت تمارس الجنس مع الشيطان. ومع ذلك فقد تعرضت لسلسلة التعذيب الوحشي الذي يجب أن تخضع له مثل أولئك الضحايا البائسات الأوروبيات.

ومنذ نحو 180 عامًا فقط، عندما أضيئت شوارع مدينة كولونيا الألمانية بالغاز لأول مرة، خرجت «صحيفة كولونيا - Kolnische Zeituong» في 28 مارس 1819 تندد بهذا العمل من منطلق ديني باعتبار «أن الإنسان في هذه الحالة قد حطم إرادة الله التي قضت بأن يكون الليل مظلمًا»([[36]](#footnote-36))!..

مثلان فقط دلالاتهما واضحة تمامًا لما كان عليه الحال في الأمس القريب لاثنين من أكبر مراكز الحضارة اليوم، وهما فرنسا وألمانيا.

\* \* \*

إن الغرب المسيحي ينظر إلى العالم اليوم - وخاصة عالم الإسلام - باستكبار وغرور، وهو يريد الهيمنة عليه وإعادة تشكيله وفق قيمه ونظم حياته.

تقول مجلة الشئون الدولية البريطانية:«إن القضية هي ما إذا كان من الممكن جعل الإسلام يقبل بقواعد المجتمع العلماني - من خلال صراعات كثيرة وطويلة ومؤلمة - أم أن رسوخ الإسلام في المجال السياسي والاجتماعي يجعله يرفض قبول المبدأ المسيحي الغربي الذي يميز بين ما لله وما لقيصر؟!

ويعكس هذا الطرح إلى أي مدى يميل الفكر الغربي إلى جعل الحضارة المسيحية اليهودية الغربية هي الحضارة المهيمنة، وجعل أفكارهما مطلقة وليس مجرد ثقافة بين ثقافات عديدة يعج بها العالم. والإسلام من بين الثقافات الموجودة في الجنوب هو الهدف المباشر للحملة الغربية الجديدة»([[37]](#footnote-37)).

ذلك ما يعملون من أجل فرضه على عالم الإسلام، وإن كان بعض باحثيهم يؤكد صعوبة بل استحالة ذلك، لما يتمتع به الإسلام من قوة ذاتية وإلى إمكانات تطوير عالمه دون محاكاة للنظام الغربي باعتباره الأسوة والمثال.

يقول أرنست جيللر:«إن وجود تقاليد محلية للإسلام قد مكن العالم الإسلامي من أن يفلت من المعضلة التي أرقت مجتمعات أخرى غير متطورة، أثار الغرب فيها الاضطراب والإذلال: معضلة ما إذا كان ينبغي إضفاء طابع مثالي على الغرب لمحاكاته.

لم يكن الإسلام في حاجة إلى هذا الخيار، لأن صورته السامية الخاصة يتوفر لها السمو من الناحية الدولية. ونتيجة لذلك، فإن عملية الإصلاح الذاتي استجابة لدواعي الحداثة يمكن أن تتم باسم الإيمان المحلي.

فذلك هو تفسيري الأساسي لمقاومة الإسلام المرموقة لاتجاه العلمنة»([[38]](#footnote-38)).

\* \* \*

ويخترع الفكر الغربي المستكبر، بين الحين والحين، شعارات براقة يستخدمها ذريعة لفرض هيمنته والتدخل في الشئون الداخلية للدول والشعوب والأفراد. ومن ذلك شعار: حقوق الإنسان، الذي نصب الغرب نفسه حاميًا له. وليته يفعل ذلك حقًا بالعدل، فلا يكيل بمكيالين كما هو حادث الآن، فصار منافقًا وفق تعاليم المسيح، فلقد قال المسيح:«لا تدينوا لكي لا تدانوا لأنكم بالدينونة التي بها تدينون، تدانون، وبالكيل الذي به تكيلون، يكال بكم.

ولماذا تنظر القذى الذي في عين أخيك. وأما الخشبة التي في عينك فلا تفطن لها؟! أم كيف تقول لأخيك: دعني أخرج القذى من عينك، وها الخشبة في عينك؟!

يا مرائي: أخرج أولًا الخشبة من عينك. وحينئذ تبصر جيدًا أن تخرج القذى من عين أخيك - إنجيل متى: 7: 1 - 5».

النفاق الغربي هو المشكلة حقًا.

\* \* \*

ولعل مفكري الغرب وساسته في حاجة اليوم إلى التذكير ببعض سجلاتهم في مجال حقوق الإنسان!

# **انتهاك الغرب لحقوق الإنسان**

لقد عاش الغرب ينتهك حقوق الإنسان عبر التاريخ، ويحتاج الحديث في هذا الموضوع إلى مجلدات، ولكنا نكتفي بذكر أمثلة محدودة وملموسة لا تقبل المراء.

## انتهاك حقوق الإنسان الأوروبي:

### الأوروبي وثنيًا:

لقد استخدام ملوك أوروبا وأمراءها السيف لإجبار شعوبهم على التحول إلى المسيحية دون خيار آخر. وفي هذا يقول المبشر ستيفن نيل([[39]](#footnote-39)):

«إن شارلمان يعتبر بلا جدال واحدًا من أعظم الشخصيات في تاريخ كل من الكنيسة والعالم... وما يهمنا في المقام الأول هنا هو امتداد الدائرة المسيحية عن طريق غزوات شارلمان ضد السكسون.

فقد كانوا مصدر خطر عليه. ولذلك قرر أن يخضعهم لسلطانه باستخدام مزيج من القوة المسلحة والعقيدة الدينية.

فمنذ عام 772 حتى عام 798م ونحن نقرأ عن استمرار الغزوات المتعاقبة، وتحول إلى المسيحية، ومؤامرات، وأعمال قمع..

وبمجرد إخضاع إحدى القبائل الألمانية. فإن تحولها إلى المسيحية كان يندرج في بنود السلام، كثمن يمنح نظير تمتعها بحماية الإمبراطور.. وتلقي القصة الطويلة للاستشهاد والمذابح، ضوءًا شاحبًا على العلميات التي تم بها أخيرًا تحول السكسون إلى المسيحية.

لقد سجل أنه في إحدى المناسبات قتل شارلمان 45..... سكسوني في يوم واحد.

وتفرض قوانين الدولة عقوبات وحشية ضد أي خرق لمجموعة القواعد المسيحية، منها:

إن أي سكسوني غير معمد، يحاول أن يختبئ بين شعبه ويرفض قبول التعميد مسيحيًا، سوف يقتل».

\* \* \*

وفي النرويج استخدام الملك أولاف، منذ عام 1995 «كل الأسلحة: المداهنة، والخداع، والتحريض. وعندما فشل كل ذلك فإنه استخدم الإجبار المحض دون مواربة.. وفي أغلب الحالات كان الملك مستعدًا عند الضرورة أن يكرههم على ابتلاع عقيدته (المسيحية) بحد السيف».

وفي بروسيا «كان يعيش في جنوب البلطيق وشرقه شعوب الوندال والبروسيين واللتوانيين، وعدد من شعوب أخرى، لم تتحد جميعها إلا على شيء واحد هو تصميمها على ألا تكون مسيحية...ومهما كان تفكيرنا في الطريقة التي اتبعت أخيرًا، فإن التاريخ لا يستطيع إنكار أن إضافة هذه المناطق إلى العالم المسيحي كان سببه غزوات الفرسان التيوتونيين...

لقد كان المفهوم هو أن هذه الجماعة لديها تفويض بأن تضم إلى ممتلكاتها أي أراضي تستولي عليها من الوثنيين، شريطة أن تعطي الشعب المغلوب، التعاليم المسيحية كتعويض له عن فقد أراضيه!

وقد حدث أخيرًا، عندما عين مطارنة لتلك المناطق، أن عدل البابا المنحة، حيث جعل الثلثين للغزاة (الفرسان) والثلث للمطارنة...

لقد انقضى خمسون عامًا في أعمال الغزو، وفي نهاية تلك الفترة انتهت المقاومة، وانضمت بروسيا إلى العالم المسيحي...

لقد جاءت إلى هنا كل أجهزة التبشير المسيحية في القرون الوسطى لترافق الغزو الحربي. وكانت بنود المعاهدة (بين الغزاة والبروسيين) أبعد ما تكون عن اعتبارها مهذبة أو صورة لنصيحة بالحسنى...

قد يكون موضع تساؤل: إلى أي مدى كان الاقتناع الداخلي متمشيًا مع المظهر الخارجي للممارسات العقيدية؟

لكنه سؤال مقلق لا يزال يتعقبنا (نحن المسيحيين) منذ حمل شارلمان السيف ليساعد على تنصير السكسون، بل إنه في الواقع يلاحقنا منذ زمن التعميد بالجملة لكلوفيس (ملك فرنسا) ورجاله في عام 496».

وفي المجر:«تزوج أميرها جيزا في عام 973 أميرة مسيحية هي أولهيد البولندية، ومنذ ذلك الوقت فصاعدًا، فإن جيزا عقد العزم على تحويل بلده إلى المسيحية.

ولما كان الترغيب لم يأت بنتائج فعالة، فإنه لجأ إلى وسائل أخرى غير مقبولة، ومن ثم تضاعف أعداد المتنصرين بسرعة».

\* \* \*

وهكذا كان تحول أوروبا إلى المسيحية بالسيف الذي عمل بين شعوبها، من شرقها إلى غربها... فهذا ما يقرره مؤرخو التبشير بالمسيحية...

\* \* \*

### الأوروبي مسيحيًا:

يكفي هنا مراجعة البحث: رابعًا وعنوانه: الكنيسة تحرق العلماء وأحرار الفكر، لترى ماذا فعلت الكنيسة بمخالفيها في الرأي، ومارست ولا تزال تمارس ذلك الإرهاب الكنسي الرهيب.

\* \* \*

## انتهاك حقوق اليهود:

عاش اليهود في أوروبا المسيحية يعانون الاضطهاد والتعذيب والطرد طبقًا لما توارثه المسيحيون عبر القرون من تعاليم الكنيسة.

ولم تقف اللعنة التي ظلت تطارد اليهود - إزاء موقفهم العدواني من المسيح حسبما تقول الأناجيل ورسائل التلاميذ - إلا بعد الحرب العالمية الثانية، وكانت خطوة حاسمة في هذا السبيل، تلك التي اتخذها البابا يوحنا الثالث والعشرون (اعتلى كرسي البابوية من أكتوبر 1958 إلى يونيو 1963م) وذلك بحذف عبارة عدائية من صلاة الجمعة الحزينة تتحدث عن اليهود الملعونين، تداولتها الكنيسة عبر القرون من مفاهيم الإنجيل، مثل قوله:«أجاب جميع الشعب وقالوا: دمه علينا وعلى أولادنا - متى 27: 25».

وكذلك من وصف بولس لليهود أعداء الإنسانية، وأن غضب الله عليهم إلى النهاية، وذلك في قولة «اليهود الذين قتلوا الرب يسوع وأنبياءهم واضطهدونا نحن، وهم غير مرضين لله، وأضداد لكل الناس، يمنعوننا عن أن نكلم الأمم لكي يخلصوا، حتى يتمموا خطاياهم في كل حين. ولكن قد أدركهم الغضب إلى النهاية - تسالونيكي 1: 14- 16».

وفي نظرة سريعة على أهم الأحداث في تاريخ الشعب الإسرائيلي، منذ صارت المسيحية الدين الرسمي للإمبراطورية الرومانية وما تلا ذلك من إقامة ممالك ودول مسيحية في أوروبا، منذ صار للمسيحية سيف تقاتل به، نجد مسلسل اضطهاد أوروبا لليهود يسير كالآتي([[40]](#footnote-40)):

537م مرسوم جستنيان بحرمان اليهود من الحقوق المدنية وحرية العبادة.

613 ملك القوط الغربيين يجبر اليهود في أسبانيا على اعتناق المسيحية.

629 إجبار اليهود على التعميد، وطردهم من فرنسا تحت حكم الملك داجوبرت.

694 تحويل جميع اليهود في أسبانيا وبروفانس إلى عبيد.

1096 مذابح للطوائف اليهودية في أوروبا، أبان الحملة الصليبية الأولى.

1099 طرد اليهود المقيمين في أورشليم بعد سقوطها في يد الصليبيين.

1113 أول مذبحة لليهود في كييف بروسيا.

1182 - 1198 طرد اليهود من فرنسا على عهد فيليب الثاني (أوغسطس).

1189 مذبحة لليهود في إنجلترا، أبان الحملة الصليبية الثالث.

1254 طرد اليهود من فرنسا في عهد القديس لويس (التاسع).

1290 طرد اليهود من إنجلترا.

1330 - 1338 انتشار الطاعون يؤدي إلى مذابح لليهود، اعتقادًا بأنهم سبب الوباء.

1394 الطرد الأخير لليهود من فرنسا على عهد شارل السادس.

1421 طرد اليهود من فيينا.

1481 محاكم التفتيش.

طرد اليهود من أسبانيا 1492، ومن لتوانيا 1495، ومن البرتغال 1498.

1516 بناء أول جيتو في فينيسيا.

1553 البابا يحرق التلمود في روما.

1563 - 1656 مذابح لليهود في أوكرانيا، وألمانيا وبولندا، والنمسا.

1670 طرد اليهود من فيينا.

1740 طرد اليهود من براغ.

1768 مذابح لليهود في أوكرانيا.

1827 القيصر نيقولا الأول يأمر بتحويل أطفال اليهود إجباريًا للمسيحية.

1891 طرد اليهود من موسكو

1819 - 1921 نشر بروتوكولات حكماء صهيون.

1936 - 1940 سن تشريعات معاداة السامية في رومانيا وإيطاليا والنمسا.

1939 - 1945 الحرب العالمية الثانية. مذابح لليهود.

\* \* \*

إن فكرة معاداة السامية اختراع أوروبي، لا علاقة له من قريب أو بعيد بالعرب، لأنهم واليهود أبناء عمومة، ويعتبرون وفق روايات الكتاب المقدس، أمة سامية.

ولا علاقة بين المسلمين واضطهاد اليهود وتعذيبهم، فالثابت تاريخيًا أن عصور ازدهار الطوائف اليهودية كانت دائمًا في ظل الحكم الإسلامي.

ولدينا في هذا المقام شهادات وردت في مرجع هام هو:

أطلس إسرائيل الحديث، الذي وضعه: البرنامج الإسرائيلي للترجمات العلمية، وطبع بمطابع جامعات إسرائيل بالقدس في عام 1968، ويعتبر بهذا وثيقة إسرائيلية رسمية.

## تقول هذا الوثيقة:

«سيطر المسلمون سيطرة كاملة على فلسطين كلها ما بين سنة 636، وسنة 640 عندما كانت تحت الحكم البيزنطي».

ووجد المسلمون جماعات يهودية مبعثرة تعيش في حالة فقر مدقع نتيجة للقيود والاضطهاد الذي مارسته الأجيال السابقة، وكانت مصادر عيشهم محدودة، وكانوا يكتسبون عيشهم في المدن بممارستهم التجارة أو الاشتغال بالأعمال الحرفية. ولم يكن لهم سوى نصيب قليل في الأدب والثقافة.

وعلى مر الزمن، استعمل يهود فلسطين كثيرًا من طرق جيرانهم بما في ذلك لغتهم، وأصبح يطلق عليهم أشباه العرب أو المستعربين.

وإذا ما قورن الفاتحون العرب في فلسطين بغيرهم من الحكام الطغاة السابقين. نجد أن العرب كانوا يعاملون الرعايا اليهود بقدر كبير من السماحة بل العطف عليهم...

وفد حاملو الصليب من البلاد الأوروبية المختلفة... ثم توجهوا رأسًا إلى هدفهم المقدس وهو مدينة أورشليم... واستولوا عليها بعد إراقة كثير من الدماء. وذبح في هذه المعركة السواد الأعظم من يهود أورشليم.

وعندما أصبح للمسيحيين اليد العليا في الموقف. قاموا بمذابح لا رحمة فيها بين اليهود.

وقد حضر إلى فلسطين العالم اليهودي والفيلسوف الكبير موسى بن ميمون في سنة 1165، ولكنه ذهب إلى مصر بسبب القلاقل التي كانت تعم البلاد في تلك الأثناء. وفي مصر قضى أحسن سني حياته الخلاقة.

إن المماليك المسلمين، هم الذين طردوا الصليبيين في النهاية وحلوا محلهم في السيطرة على فلسطين. وكان المماليك يعطفون على اليهود ويحسنون معاملتهم. وساد الرخاء بين الطائفة اليهودية في فلسطين أيام حكمهم.

وفي أيام حكم المماليك ساد السلام والهدوء ربوع البلاد، وكان هناك سيل لا ينقطع من الحجاج المسيحيين واليهود...

وقد استولى المسلمون الأتراك على البلاد من المسلمين المماليك في سنة 1517، وفي عهدهم استمرت الطائفة اليهودية في النمو والازدهار... وفتح السلطان سليمان الكبير طبرية وقرى كثيرة أخرى بالقرب منها لإقامة اليهود واستقرارهم فيها...

وفي سنة 1831 غزا البلاد الجيش المصري بقيادة إبراهيم باشا ابن محمد علي. وفي عهده ازدهرت المدن اليهودية في فلسطين!

\* \* \*

بعد هذا: من يجرؤ على التنكر أو الإنكار؟!

## انتهاك حقوق المسلمين:

## من الماضي:

هو حديث طويل يتعذر تقصيه في صفحات، لكن ملامحه الرئيسية يحددها مثال متكرر عبر القرون، يرينا كيف يعامل المسيحيون المسلمين عندما يكون السلطان بيد المسيحية.

إنها قصة اضطهاد دموي غشوم، من أمثلته ما حدث بالأندلس بعد سقوط غرناطة عام 1492م. فلقد توالت القوانين الجائرة لاستئصال بقايا العرب والمسلمين في الأندلس. ومنذ عام 1501 أجبر المسلمون على التنصر. وكان الإعدام نصيب كل من يمارس في الخفاء تعاليم الإسلام، أو تلقين أولاده مبادئ الدين ولغتهم العربية وأمام هذا القمع الأعمى والإرهاب المطلق، تظاهر المسلمون ابتداء من عام 1526 باعتناق المسيحية. وقد ظلوا على هذا الحال أكثر من قرن، يخفون دينهم في قرارة أنفسهم ويلقنونه أبناءهم بكامل السرية والحذر.

وقد أنشئت في تلك الفترة دواوين التفتيش لتعقب المسلمين والتجسس على من تنصر منهم، وتسليط أشد العقوبات عليهم ومن بينها الإبادة الجماعية. وفي تلك الفترة أصدر المفتش العام دون الفونسو مانريك قائمة بسائر المظاهر التي تدين صاحبها بالتلبس بممارسة شعائر الإسلام، وبالتالي تبيح أن ينـزل به أشد العقوبات فتكًا، وإرهابًا، وكانت تعلق تلك القوائم في الكنائس والساحات العامة، وتحرض المسيحيين الأسبان على الوشاية بكل من يشتبه في تشبثه بالإسلام.

ونقرأ في هذه القائمة:

«لكل ما يتعلق بالملحدين المحمديين، إليكم المظاهر والأشياء التي يجب الإخبار عنها:

إذا قيل أن المسيح كان نبيًا، وليس إلهًا، وإن والدته لم تكن عذراء!

إن سمعنا أو رأينا أن المسيحيين الذين تم تعميدهم، يقومون ببعض طقوس أعياد الدين المحمدي، مثل الاحتفال بيوم الجمعة، وتزييهم بقميص نظيف وألبسة أحسن من بقية الأيام الأخرى.

إذا ذبحوا الدواجن والحيوانات قاطعين العنق بالسكين، وقائلين: باسم الله.

إذا رفضوا أكل لحم الحيوانات غير المذبوحة.

إذا ختنوا أبناءهم أو لقبوهم بأسماء عربية.

إذا قالوا أنه يجب الإيمان بالله وبمحمد نبيه.

إذا حلفوا بكل الآيات القرآنية.

إذا قاموا بصيام رمضان، وأنهم لم يأكلوا أو يشربوا حتى يلاحظوا النجمة الأولى، ووزعوا بعض الصدقات.

إذا قاموا بالسحور، واستفاقوا ليأكلوا قبل طلوع النهار، أو غسلوا أفواههم ورجعوا إلى فراشهم.

إذا قاموا بالوضوء وغسلوا السواعد والأيدي حتى المرافق، والوجه والفم والأنف، والأذنين والقدمين والأعضاء الجنسية.

إذا قاموا إلى الصلاة وحولوا وجهتهم نحو المشرق.

إذا احتلفوا بعيد الأضحى بعد قيامهم بالوضوء.

إذا تزوجوا على المنهج المحمدي.

إذا غنوا الأغاني العربية ونظموا حفلات أو رقصات وغنوا بآلات موسيقية ممنوعة.

إذا احترموا تعاليم الإسلام الخمسة.

إذا غسلوا موتاهم ولفوهم في كفن من قماش أبيض ودفنوهم في قبر عميق وأضجعوهم فيه، واضعين حجارة تحت رؤوسهم.

إذا قالوا أو فعلوا أي شيء مرتبط بالدين المحمدي.

\* \* \*

ويكفينا جوستاف لوبون التعقيب على أحداث تلك الحقبة الحالكة بقوله في كتابه «حضارة العرب»:

«يستحيل علينا أن نقرأ دون أن ترتعد فرائصنا من قصص التعذيب والاضطهاد التي قام بها المسيحيون المنتصرون على المسلمين المنهزمين.

فلقد عمدوهم عنوة، وسلموهم لدواوين التفتيش التي أحرقت منهم ما استطاعت من الجموع. واقترح القس بليدو قطع رؤوس كل العرب دون أي استثناء ممن لم يعتنقوا المسيحية بعد، بما في ذلك النساء والأطفال.

وهكذا تم قتل أو طرد ثلاثة ملايين عربي، كانوا يشكلون النخبة الفكرية والصناعية في أسبانيا. وهكذا انطفأت حضارتهم الوهاجة التي ظلت تشع على أوروبا منذ ثمانية قرون».

\* \* \*

ويقول المؤرخ الأمريكي درايبر في كتابه «النمو الثقافي في أوروبا»:«ما أن رسخت أقدام العرب في أسبانيا حتى شرعوا في عملهم الفريد الوضاء. وأصبح خلفاء قرطبة أكبر حماة للعلوم. وأقاموا الدليل على سمو ذوق يتناقض بصورة صارخة مع بدائية الأمراء الأوربيين. وتحت إدارة هؤلاء الخلفاء بلغت قرطبة أوج ازدهارها، فبعد غروب الشمس، يمكن للمرء بها أن يقطع عشرة أميال في شوارع مستقيمة مضاءة بالفوانيس.

وبعد سبع قرون من ذلك لم تكن لندن عرفت بعد الإضاءة العمومية، وكانت شوارع قرطبة مبلطة بطريقة جيدة. وبعد أربعة قرون من ذلك لم يكن الباريسي يستطيع أن يخطو عتبة بيته دون أن يغوص في الوحل إلى كعبه.

إن العرب لم يحملوا معهم إلى أسبانيا: لا الأحقاد الطائفية أو الدينية، ولا محاكم التفتيش، وإنما حملوا معهم أنفس شيئين في العالم، هما أصل عظمة الأمم: السماحة والفلاحة».

\* \* \*

## من الحاضر:

منذ خمسين عامًا، اشتعلت الحرب العالمية الثانية... وهي حرب أوروبية مائة بالمائة، كان حريًا بمن أشعلوها نتيجة طموحاتهم أو أخطائهم، أن يقصروها على شعوبهم وبلدانهم.

لكن دنيا السياسة لا تعرف حقوقًا ولا ترتبط بواجبات. فلقد وضع ميكيافيلي (1469- 1527) نظريته في أن: الغاية تبرر الوسيلة، فجرد السياسة من الأخلاق. ولا مانع بعد ذلك أن تتردى السياسة إلى السفالة والقهر والإرهاب، فالأمير المرهوب أفضل، عنده، من الأمير المحبوب.

لقد عاصر جيلنا تلك الحرب الضروس، التي امتدت ليكتوي بنيرانها العالم القديم كله. في تلك الأثناء كانت جميع البلدان الإسلامية، عدا بلدًا أو بلدين، خاضعة تمامًا للاستعمار الأوروبي: من المحيط الأطلسي غربًا إلى الأرخبيل الأندونيسي شرقًا. وهذا الاستعمار ظاهرة - كما يقول الدكتور لويس عوض - «اقترنت بالحضارة الغربية الحديثة، وانتهت بنـزح ثروات العالم وكنوزه وتكديسها واستغلالها في أوروبا في الإنتاج والخدمات، وفي مزيد من البحث والاقتحام».

\* \* \*

لقد أكلت هذه الحرب شباب العالم الإسلامي، واستنـزفت خيرات بلاده، سواء فيما وراء البحار - كما يقولون في أوروبا - في المراحل الأولى من الحرب، أو خلال المعارك الدموية فوق أرض أوروبا ذاتها خلال مراحلها الأخيرة. إن وثائق الحرب في لندن، وباريس، ولاهاي، وروما، وغيرها، خير شاهد على ذلك.

بل دعنا من الوثائق وما فيها، فهذه يمكن إخفاؤها والعبث بها، فلدينا ما هو أقوى من ذلك آلاف المرات... إنه الواقع الملموس بجميع حواس الإنسان.

لقد نقلت أوروبا صراعاتها الدموية الرهيبة إلى شعوب مستعمراتها وهكذا، نجد إحدى البلاد التي احتلتها إنجلترا سابقًا، وهي مصر، قد اكتوت بنار الحرب العالمية، حرب فرضت عليها فرضًا، فأجبرت على التعرض للخسائر والدمار طيلة سنواتها، ولا تزال تعاني إلى الآن من آثارها التخريبية. ولو جاءت لجنة من دول الاتحاد الأوروبي لتعاين آثار حروبها المدمرة إلى الآن لتقدر تعويضات مناسبة لمصر، وسارت على أرض الساحل الشمالي المصري في منطقة العلمين وما حولها، فلن تعود تلك اللجنة أبدًا.... ستنسفها ألغام الحرب التي زرعها الانجليز والألمان... تلك الألغام التي يحصد المصريون ثمارها بإزهاق الأنفس كل يوم... وفي نفس الوقت تحرمهم من زراعة أكثر من 2 مليون فدان، مساحة هائلة يكفي أن نعلم أنها تساوي ثلث مساحة الأرض الزراعية بمصر، فهي مساحة كانت كفيلة بتوفير احتياجاتهم من القمح، ذلك المحصول الاستراتيجي، الذي صار واحدًا من أسلحة الاستعمار الجديد...

لقد كانت مصر في الماضي مزرعة قمح الرئيسية للإمبراطورية الرومانية الجبارة، فإذا بها الآن تستورده لتأكل...!

ومع ذلك، فإن صوت القوة الغشوم والاستعلاء المتعصب لا يزال يزعم كل صباح: أنها حضارة حقوق الإنسان...!

\* \* \*

## وماذا في أوروبا، بعد انتهاء الحرب؟

ما كان غير الأيدي العاملة الرخيصة والمطيعة من شباب العالم الإسلامي وبقية العالم الثالث، ليقوم بعمليات إعادة بناء أوروبا وتعميرها. فلقد جند هؤلاء واستدعوا من أوطانهم ليحملوا أعباء البناء من أجل السلام، كما حملوا أعباء الحرب والقتال، لقد جاءوا من نيجيريا والسنغال وغينيا... ومن المغرب والجزائر وتونس... ومن تركيا وإيران وشبه القارة الهندية والملايو وأندونيسيا... جاءوا من كل مكان إلى أوروبا ليعملوا بها، وحصلوا على جنسيات البلدان التي استقروا فيها، حتى إذا انقضت بضع عقود من السنين، هدأت فيها الحرب الباردة بين الشرق والغرب، واستعاد الاقتصاد الأوروبي قوته، وقاربت أوروبا تحقيق وحدة قوية بينها، خطط لها عام 1992، انطلقت أصوات انتهازية تتنكر لدائنيها، وتدعو لطرد أولئك الغرباء عن النسيج الأوروبي المتميز!

إن هذا وحده خير برهان، لمن هو في حاجة إلى برهان على أن أولئك القوم لا يعرفون التعايش السلمي بين الأديان وحين تكون لهم اليد الطولى في مجتمع ما، فإما خضوع من الكل لتقاليدهم وممارستهم، وإما صدام لا مفر منه.

لقد استنفدت أوروبا أغراضها منهم، ولم تعد بحاجة إليهم، فليذهبوا إلى أي مكان، وليكن الجحيم...! لا يهم فالأمر سيان... أليس هذا ما جاء في سفر (الأمير): السياسة سفالة... أو كما قال....!

الأدهى والأمر، أنهم يعطوننا دروسًا في حقوق الإنسان...!

## انتهاك حقوق شعوب الشرق والمستعمرات:

تعتبر أفريقيا خير مثال لدراسة الاستعمار وما ارتبط به من انتهاكات فظيعة لحقوق الإنسان، فهذه القارة قد تعرضت لمختلف أنواع الاستعمار بخصائصه المختلفة، فذاقت ويلات الاستعمار: الانجليزي والفرنسي والايطالي والأسباني والبرتغالي والبلجيكي والهولندي والألماني.

وقد قام القس جاك مندلسون بجولة تبشيرية في أفريقيا في الستينات من هذا القرن، تعرف فيها على مشاكل القارة وارتباطها بالتبشير الذي عمل مخلب قط للاستعمار.

يقول جاك مندلسون:«حينما تكون حالة الشبان الإفريقيين سعيدة، فإنهم لا يتعبون من ترديد القصة القديمة: إن المبشرين جاءوا إلينا وقالوا: إننا نريد أن نعلمكم العبادة، وقلنا:حسنًا إننا نريد أن نتعلم العبادة.

وطلب المبشرون منا أن نغلق أعيننا، وفعلنا ذلك وتعلمنا التعبد وحينما فتحنا أعيننا، وجدنا الإنجيل في يدنا ووجدنا أراضينا قد اغتصبت.

وهناك أيضًا تلك الكلمات المريرة، كلمات تكررت بلا توقف في أفريقيا كلها: إن حركة التبشير المسيحية كانت محاولة لإخماد الروح الإفريقية.

إن ما تدعيه المسيحية من معاملة الناس بالحسنى لا معنى له، لأن المسيحية قد ثبت عمليًا أنها دين مشاغب، فكل ملة تهاجم الأخرى..

إن المبشرين مذنبون بأكبر خداع حماسي لجذب الناس للعمل الارسالي.. إنهم وكلاء لسوء التمثيل الخارجي... إنهم كانوا ذئابًا في جلود نعاج... إن المسيحية كانت جزءًا من خداع أفريقيا».

ولقد عقب مندلسون على ذلك بقوله: «إن المبشر مهما اعتقد أن هدفه مختلف عن المستكشف والمستوطن والوكيل التجاري والموظف الإداري، فإن الأفريقي رأى فيهم جميعًا مشروعًا مشتركًا.

ولم يكن الأفريقي مخطئا في تقديره... فالمسيحية، وقد طبع عليها الاستعمار طابعه، أصبحت في موقف شديد الحرج»([[41]](#footnote-41)).

\* \* \*

ويقول المبشر ستيفن نيل:«في القرن التاسع عشر، خضع المبشرون إلى العقد الاستعمارية التي تقول بأن الرجل الغربي فقط هو الإنسان بكل ما تعنيه هذه الكلمة. لقد كان عاقلًا وطيبًا.

على أنه يجوز للأجناس الأخرى (غير الأوروبية) أن تشارك في هذه الحركة والطيبة بالقدر الذي تصطبغ به من نظم الحياة الغربية ولكن الرجل الغربي كان هو القائد، ولسوف يبقى هكذا لزمن طويل، وربما إلى الأبد.

فحتى عام 1914 لم يكن لدى الكنيسة الرومانية الكاثوليكية أي أسقف من أصل غير أوروبي سوى أربعة.

وعندما أثار شاب بلجيكي، هو القس فنسنت لب، السؤال عما إذا كان الوقت لم يحن بعد لخلق أسقفية وطنية في الأقاليم الأخرى، فإنه واجه معارضة شديدة لاحقته في كل مكان، تقول: أنه طالما كان الجنس الأبيض في استطاعته أن يقدم موردًا لا ينضب من الأساقفة، فإنه لا يمكن أن يوجد رجل واحد من الأجناس الصفراء والحمراء والبنية والسوداء، يستطيع حمل ثقل الأسقفية...

وفي أمريكا، كان المبشرون شهودًا على مأساة الهنود الحمر، إن أيًا من بريطانيا وفرنسا وهولندا، لا يمكنها التنصل مما حدث. لقد كان الأسلوب اللا إنساني الذي أقحم به الرجل الأبيض، وذلك الهندي الأحمر في صراعاته الخاصة، مثيرًا الهندي ضد لهندي، والهندي ضد الأوروبي، إنما يمثل مرحلة من أكثر مراحل التاريخ الاستعماري خزيًا وعارًا.

وأسوأ من ذلك هو تطبيق مبدأ: اشرب الخمر، ودع الشيطان يتكفل بالتالي.

فإن الهندي الأحمر لم يستطيع مقاومة إغراء خمر الرجل الأبيض الملتهبة. وهنا، كما في أي مكان آخر، نجد أن تغذية الشعب البدائي بالكحول، يعادل القتل مع سبق الإصرار»([[42]](#footnote-42)).

\* \* \*

أما في آسيا، فلقد حدث قرب منتصف القرن التاسع عشر أن قادت إنجلترا حرب الأفيون ضد الصين، وفي هذا يقول ستيفن نيل في كتابه: تاريخ إرساليات التبشير المسيحي:«لقد كان فتح الصين للتبشير بالإنجيل مرتبط تمامًا بالضغوط التجارية والسياسة التي مارستها قوى الغرب، وفي عام 1839 وصل الضغط إلى الحد الذي بدا إن الحرب هي المخرج الوحيد. ولقد كان السبب المباشر لتلك الحرب هو تصميم بريطانيا على ضمان توريد الأفيون الهندي إلى الصين، وهو ما كانت تعمل الحكومة الصينية على منعه... ولقد ضمنت معاهدة نانكنج عام 1842 التي أنهت تلك الحرب مجموعة من المزايا للغربيين، فقد استسلمت هونج كونج وأصبحت محمية بريطانية... وأصبح للأجانب الحق في المحاكمة وفق قوانين بلادهم وأمام موظفي تلك البلاد وليس أمام الصينيين. وكان من الواضح أن المبشرين استفادوا من هذه الميزات - ص 282».

ثم كانت حرب الأفيون الثانية 1856 - 1860 التي شنتها بريطانيا بمعاونة فرنسا والولايات المتحدة حيث اقتحموا بعض المدن الهامة وزحفوا على العاصمة. وانتهت تلك الحرب بمعاهدة جديدة فقدت فيها الصين بعض مدنها وأقاليمها الساحلية وفتحت الصين كلها للأجانب وصار استيراد الأفيون عملًا مشروعًا...

لقد كانت حرب الأفيون تدميرًا للشعب الصيني وقتلًا عمدًا مع سبق الإصرار والترصد...

\* \* \*

ومع هذا ذهب جون ميجور رئيس وزراء بريطانيا لزيارة الصين في عام 1991 ليجري محادثات مع المسئولين يعطيهم فيها دروسًا في حقوق الإنسان الصيني ويندد بما فعلته حكومة الصين ضد مظاهرات الطلبة عام 1989 فيما عرف باسم أحداث الميدان السماوي في بكين....!

لقد نسى جون ميجور - أو تناسى - ما فعلته بلده - بريطانيا العظمى - في القرن الماضي من فرض الأفيون على الشعب الصيني كله - في القرن الماضي من فرض الأفيون على الشعب الصيني كله، وهو ما يعتبر تدميرًا متعمدًا مع سبق الإصرار!

\* \* \*

ونختم الحديث عن تناقضات الغرب ونفاقه فيما يتعلق بحقوق الإنسان، بذكر حادثة عاصرناها في هذا العقد الأخير من القرن العشرين. ففي عام 1992 ذهب الفلسطيني المريض جورج حبش، البالغ من العمر 65 سنة، إلى فرنسا ليعالج من نـزيف في المخ على حسابه، وبعد أن حصلت منظمة الصليب الأحمر الفرنسية على موافقة وزارتي الخارجية والداخلية دخل باريس يوم 29 يناير. وهناك قامت قيامتهم بدعوى أنه رئيس للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين التي يعتبرونها منظمة إرهابية. وقد أدت حملة الاحتجاج الأولى إلى استقالة أربعة من كبار المسئولين هم: السكرتير العام لوزارة الخارجية، ومدير مكتب وزير الخارجية، ومدير مكتب وزير الداخلية، ورئيسة جمعية الصليب الأحمر الفرنسية. وفي هذا الجو المحموم أصدرت السلطات الفرنسية قرارًا بالتحفظ على حبش المريض، ثم ما لبث قاضي التحقيق في قضايا الإرهاب أن اتخذ قرارًا بالإفراج عن حبش بناء على شهادة أربعة أطباء بأنه ليس في حالة تسمح باستجوابه، فسمح له بمغادرة فرنسا دون علاج. ومع ذلك لم تهدأ الثورة ضد دخول جورج حبش المريض إلى فرنسا، فقرر الرئيس ميتران دعوة الجمعية الوطنية - البرلمان - لجلسة طارئة تعقد يوم 7 فبراير لبحث الموقف الخطير الناشئ عن دخول حبش إلى فرنسا... وكأن الجيوش الألمانية قد دخلت باريس مرة ثالثة بعد دخولها عام 1870، 1940...! يا للعار!....

لقد قال المحامي الفرنسي الشهير جاك فيرجيس: أنه موقف يتسم بالعنصرية ومعاداة الأجانب وأنه يشعر بخجل شديد نظرًا لأنه في الوقت الذي يسمح فيه لشامير وشارون مجرمي مذابح صابرا وشاتيلا بالدخول بحرية إلى فرنسا دون أن يحتج أحد، يتعرض زعيم فلسطين لمضايقات اضطرته لمغادرة فرنسا قبل علاجه...

ويجب أن نذكر هنا بما حدث إبان الحروب الصليبية - التي شنها الغرب المسيحي بقيادة الكنيسة الكاثوليكية - في معركة يافا عام 1192 وما كان بين صلاح الدين الأيوبي قائد جيوش المسلمين، وريتشارد قلب الأسد قائد جيوش المسيحيين. يقول المؤرخ البريطاني ستيفن رنسيمان في كتابه: تاريخ الحروب الصليبية:«عندما سقط حصان ريتشارد براكبه، إلى الأرض فإن صلاح الدين أرسل إليه خوخًا وكمثرى وثلجًا لتبريد مشروباته»... لقد حدث هذا في العصور الوسطى وخلال معارك حربية سالت فيها الدماء أنهارًا!...

\* \* \*

## إرهاب الدولة أم إرهاب الفرد؟

في كل المجتمعات، قديمًا وحديثًا، يوجد أفراد يمارسون العنف والإرهاب ضد مجتمعاتهم. ويكون الضحايا من بني جنسهم بل ويتبعون نفس ديانتهم.

أما عندما تمارس الدول الإرهاب، فإن هذا وضع مختلف تمامًا. فهي قد خرجت على القوانين والأعراف الدولية وتتحمل المسئولية كاملة عن أعمالها، وتعرض نفسها للإدانة والعقاب إن كان هناك عدل وعقاب لكن بعد أن اتخذ الغرب من الإسلام عدوًا بديلًا عن الاتحاد السوفيتي المنهار، صارت تهمة الإرهاب جاهزة لإلصاقها بالإسلام عند وقوع أول عمل إرهابي مثل حادث التفجير المروع للمبنى الحكومي الفيدرالي في مدينة أوكلاهوما بالولايات المتحدة الأمريكية يوم 19 أبريل 1995، وراح ضحيته 168 قتيلًا و400 من الجرحى، فإثر وقوع الحادث، ألصقت التهمة على الفور بالعرب والمسلمين، ونشطت الصحافة والتلفزيون لإثبات التهمة لجمهور يسهل عليه تصديق ذلك بسبب غسيل المخ الذي يتعرض له يوميًا ويصور المسلمين أعداء لأمريكا والغرب والحضارة بوجه عام. واتهمت صحيفتا نيويورك تايمز، وول ستريت جورنال، في اليوم التالي، رجلين ذوي ملامح شرق أوسطية بارتكاب الحادث. وقبض على مواطن أردني أمريكي الجنسية في مطار هيثرو بلندن. بينما تعرضت زوجته للتحرش والإهانة. كما أسقطت امرأة عربية جنينها عندما حاصر غوغاء غاصبون منـزلها، وانطلقت الصيحات المحمومة تطالب بوضع العرب والمسلمين في معسكرات اعتقال كما حدث لليابانيين الأمريكي الجنسية خلال الحرب العالمية. وأخيرًا وبعد انقضاء 60 ساعة من هذا الجنون الغاضب تبين أن الذي قام بهذا العمل الإرهابي هو مواطن أمريكي مسيحي أبيض اسمه تيموثي ماكفاي، ردًا على قيام قوات مكتب التحقيقات الفيدرالي في 19 أبريل 1993 بعملية عسكرية ضد حركة دينية تعرف باسم الداودية، أدت إلى مقتل رئيس الحركة وعدد من أتباعه.

\* \* \*

يقول الرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون في كتابه اغتنموا الفرصة:«إن الكثيرين من الأميركيين قد أصبحوا ينظرون إلى كل المسلمين كأعداء... وقليل من الأمريكيين من يدركون عراقة الدين الإسلامي.. ويتصور كثير من الأمريكيين أن المسلمين شعوب غير متحضرة ودمويون وغير منطقيين»([[43]](#footnote-43)).

إن دول الغرب الرئيسية المتحضرة قد مارست في السنوات الأخيرة إرهابًا مفضوحًا دون اعتبار لأي شيء! ففي عام 1956 قامت فرنسا الدولة بأول حادثة اختطاف طائرات! فقد اختطفت الطائرة التي كانت تقل زعماء الجزائر الخمسة: أحمد بن بلا ورفاقه...

وفي عام 1989 قامت الولايات المتحدة الأمريكية بغزو بنما واختطاف عميلها السابق الرئيس نورويجا ومحاكمته على أرضها..

وفي يناير 1992 قامت وحدات البحرية الألمانية في المياه الدولية في البحر الأبيض المتوسط، باحتجاز سفينة شحن تحمل ستة عشر دبابة تمثل جزءًا من صفقة أسلحة اشترتها سوريا من تشيكوسلوفاكيا...

إنه حقًا قانون الغاب، حيث الوحوش هناك: من الناب والظفر برهانها...!

\* \* \*

## لن يعدم الحق أنصارًا من الكبراء:

إن العالم الغربي اليوم في أشد الحاجة إلى عقلاء علماء حكماء، يؤمنون بالعدل والأخلاق، ويرفضون الغرور والنفاق.

وهناك حديث لم يستغرق سوى دقائق معدودات، لكنه جدير بأن تتناقله الأجيال.

فقد كان أحد ملوك أوروبا المعاصرين - وهو شاب زاده الله بسطة في العالم والجسم - في زيارة منطقة الأهرامات بمصر.

وكان بصحبته، بطبيعة الحال، بعض حاشيته الذي أدلى بملاحظة عابرة عن نظافة المكان، فما كان من هذا الملك المثقف إلا أن نهره قائلًا: عندما كان أجداد هؤلاء يبنون الأهرامات كان أجدادك يجرون وراء الحيوانات في الغابات!...

## خطاب الأمير تشارلز ولي عهد بريطانيا:

في عام 1993 ألقى الأمير تشارلز، ولي عهد بريطانيا، محاضرة في افتتاح مركز الدراسات الإسلامية في أكسفورد. جاء فيها:«من الغريب من وجوه عدة أن يستمر سوء الفهم بين الإسلام والغرب فالذي يربط بين عالمينا أقوى بكثير مما يقسمهما..

علينا في الغرب أيضًا أن نفهم نظرة العالم الإسلامي إلينا. فالمرء لا يجني مكسب، بل يتسبب في كثير من الأذى إذا رفض مدى التخوف الحقيقي لكثير من الناس في العالم الإسلامي من ماديتنا الغربية وثقافتنا الشعبية باعتبارهما تحديًا فتاكًا لثقافتهم الإسلامية. إننا نسقط في فخ الغطرسة المقيتة إذا نحن خلطنا بين العصرية في البلدان الأخرى، وتحويلها أشباه لنا، وعلينا ألا ننساق وراء الاعتقاد بأن التطرف هو سمة المسلم وجوهره. فالتطرف ليس حكرًا على الإسلام بل ينسحب على الديانات الأخرى بما فيها المسيحية والغالبية العظمى من المسلمين يتسمون بالاعتدال من الناحية السياسية، وأن يكونوا شخصيًا أتقياء ودينهم هو دين الاعتدال، والنبي محمد نفسه كان يمقت التطرف دائمًا ويخشاه.

إن العالم الإسلامي في العصور الوسطى، من آسيا الصغرى إلى شواطئ الأطلسي، كان عالمًا ازدهر فيه البحاثة المختصون ورجال العلم. ولكن بالنظر إلى أننا نميل إلى اعتبار الإسلام عدوًا للغرب ونظام عقيدة وثقافة ومجتمعًا غريبًا، فقد جنحنا إلى تجاهله ومحو أهميته بالنسبة إلى تاريخنا. فقد قللنا مثلًا من أهمية 800 عام من المجتمع والثقافة الإسلامية في أسبانيا بين القرنين الثامن والخامس عشر.

لقد تم الاعتراف منذ عهد طويل بمساهمة أسبانيا في ظل الحكم الإسلامي، في المحافظة على العلوم والمعارف الكلاسيكية خلال عصور الظلام، وفي وضع اللبنات الأولى للنهضة الأوروبية. لقد شجع الإسلام البحث والتنقيب وحافظ عليهما، وثمة قول مأثور جاء فيه: إن حبر العالم أقدس من دم الشهيد.

لقد كانت قرطبة في القرن العاشر أكثر المدن تحضرًا في أوروبا.

فنحن نعرف وجود مكتبات عمومية في أسبانيا، في الوقت الذي كان الملك الفرد يرتكب أخطاء في فنون الطبخ في هذه البلاد ويقال أن مكتبة حاكم قرطبة كانت تضم 400 مجلد، أي ما يزيد على عدد الكتب في جميع المكتبات في بقية أوروبا إن كثيرًا من المزايا التي تفخر بها أوروبا العصرية جاءت أصلًا من أسبانيا أثناء الحكم الإسلامي. فالدبلوماسية، وحرية التجارة، والحدود المفتوحة، وأساليب البحث الأكاديمي، وعلم الأنثروبولوجيا، وآداب السلوك والموضة، والطب البديل والمستشفيات جاءت كلها من تلك المدينة العظيمة. وقد كان الإسلام في العصور الوسطى دينًا يتسم بقدر ملفت للنظر من التسامح بالنسبة إلى تلك الحقبة. وكان بذلك قدوة لم تحتذِ بها - للأسف - دول كثيرة في الغرب.

إن الإسلام جزء من ماضينا وحاضرنا في جميع مجالات البحث الإنساني، وقد ساهم إنشاء أوروبا العصرية. إنه جزء من تراثنا وليس منفصلًا عنه.

وعلاوة على ذلك، فإن الإسلام يمكن أن يعلمنا طريقة للتفاهم والعيش في العالم، الأمر الذي فقدته الديانة المسيحية مما أدى إلى إفقارها. ويكمن في جوهر الإسلام محافظته على نظرة متكاملة إلى الكون , فالإسلام يرفض الفصل بين الإنسان والطبيعة والدين والعلم، والعقل والمادة.

لم يعد في وسع العالمين الإسلامي والغربي أن يسمحا للانقسام أن يمنعهما من بذل جهد مشترك لحل مشاكلهما المشتركة، ولا يسعنا أن نبعث من جديد مجابهات الماضي من إقليمية وسياسة، وعلينا أن نطلع بعضنا البعض على تجاربنا، ونتسامح ونبني على أساس المبادئ الإيجابية التي تشترك فيها ثقافتنا.

إن هذين العالمين الإسلامي والغربي قد وصلا الآن إلى ما يشبه مفترق الطرق في علاقاتهما، ولا يجوز أن ندعهما يفترقان، وأنا لا أوافق على مقولة أنهما يتجهان نحو صدام في عهد جديد من الخصومة والعداء. بل إنني على اقتناع تام بأن لدى عالمينا الكثير لكي يقدماه إلى بعضهما البعض»([[44]](#footnote-44)).

\* \*

## الأمير تشارلز يقول: لنتعلم من الإسلام!

لقد كان ذلك بعض ما جاء في خطاب الأمير تشارلز الذي ألقاه في أوكسفورد في أكتوبر 1993. وبعد نحو ثلاث سنوات - في ديسمبر 1996 - ألقى الأمير حديثًا آخر في ديلتون بارك، أمام حشد من الأكاديميين ورجال الأعمال. وممثلي الهيئات المعنية بموضوع الإسلام والغرب. وقد كتب جون كيسي الأستاذ بجامعة كمبريدج مقالًا نشرته صحيفة الديلي تلجراف، تعليقًا على شجاعة الأمير تشارلز ورؤيته الواسعة للعلاقات الدولية. قال فيه:

«من تجربتي الخاصة، فإنك عندما تكتب شيئًا يظهر التعاطف والاحترام للإسلام، تتلقى فيضًا من الرسائل المعادية. ومعظم تلك الرسائل تصدر عن أناس يؤمنون بأن هناك مؤامرة إسلامية عالمية. إن هذه الأجواء السلبية تجعل من محاولات الأمير تشارلز إضفاء شيء من الإنصاف على فهمنا ورؤيتنا للمسلمين تنطوي على شجاعة واضحة. فالجو الخانق المنبعث من التحامل على الإسلام في الغرب في الوقت الراهن، يجعل من الصعب علينا فهم هذه الديانة السماوية أكثر من أي وقت مضى».

ولقد قال الأمير تشارلز في حديثه هذا:«إننا الآن بدأنا ندرك العواقب المدمرة لاستسلامنا للتعاليم والرؤى التي تتبناها الحضارة الغربية، حتى سعى العلم إلى الاستيلاء على الطبيعة من الخالق حين جزأ الكون إلى مزق، وأقصى المقدس إلى زاوية نائية ثانوية، وحين فقد الإحساس الكلي بالبيئة وبمسئوليتنا الشاملة إزاء الخليقة كلها». ولقد امتدح الأمير الثقافة الإسلامية التي جاهدت للحفاظ على الرؤية الروحية المتكاملة إلى العالم بطريقة لم تتوافر في العالم الغربي. كما أشاد بقدرة الإسلام على الوصل بين الديني والدنيوي، والمادي والمعنوي، بصورة كفلت توازن البشر وأشاعت السكينة الذي لدى جماهير المؤمنين. وكانت دعوته إلى ضرورة التعلم من الإسلام أكثر ما لفت الانتباه في حديثه حتى إن صحيفتنا التايمز والديلي تلجراف أظهرتها بجعلها عنوانًا لحديث الأمير يقول: لنتعلم من الإسلام([[45]](#footnote-45)).

\* \*

## تراجع صاحب نظرية صراع الحضارات:

ولعل رؤية الأمير تشارلز وأمثاله من عقلاء الغرب ومفكريه الموضوعيين لما يجب أن تكون عليه العلاقة بين الإسلام والغرب، هي السبب وراء ظهور وعي متنام في هذا الاتجاه، أدى إلى تراجع بعض المفكرين الغربيين عن نظرياتهم السابقة بحتمية الصراع بين الإسلام والغرب. فلقد عقدت في أكتوبر 1997م في معهد ألفرد هير هاوزن بالعاصمة الألمانية بون ندوة موضوعها: الإسلام والغرب، شارك فيها حشد كبير من السياسيين والمفكرين الغربيين ومنهم صموئيل هنتنجتون صاحب نظرية «صراع الحضارات» الشهيرة والذي توقع فيها صدامًا بين الحضارة الغربية من جهة والحضارتين الإسلامية والكونفوشية الصينية من جهة أخرى.

وفي هذه الندوة كرر جون كالفن السكرتير العام السابق لحلف الأطلنطي ما سبق أن أعلنه من أن الإسلام هو العدو الجديد للغرب بدل الشيوعية التي انهارت، إلا أنه فوجئ بأن الحاضرين لم يوافقوه على هذا الرأي. فلم يكد كالفن ينهي حديثه، حتى تصدى له - على غير المتوقع - صموئيل هنتنجتون. وقد تصور الحاضرون أن هذا الأخير سيواصل ما بدأه الأول من هجوم على الإسلام والمسلمين، خصوصًا أنه صاحب مقولة أن «الإسلام سينتهي أمره على يد الغرب بلا أدنى شك» إلا أن هنتنجتون جاء برأي آخر في صالح الحضارة الإسلامية. بل أنه اعترف أمام هذه الندوة بأنه أخطأ في تقديره وكتابه: صراع الحضارات، عندما قال إن الإسلام سينهار. وفي هذه الندوة قال هنتنجتون:«ما من أمة إلا تركت حضارة وراءها، ولكن هذه الحضارة اندثرت وصارت أثرًا بعد عين - مثل: الرومان والفرس والآشوريين وغيرهم - إلا الحضارة الإسلامية التي بقيت إلى الآن شاهدة على إمكانية عودة المسلمين إلى قيادة العالم مرة أخرى، حتى إن المعاهد العلمية التي أقاموها في أوروبا والشرق الأوسط وأفريقيا وآسيا لا تزال تستمد المعرفة من علمها، وهو أكبر دليل على قدرة المسلمين على الإبداع العلمي والقدرة على الخروج من المأزق الذي يعيشون. ولم يقف هنتنجتون عند هذا الحد، بل واصل حديثه بالاعتراف بأنه أخطأ في تقدير قوة بقاء الحضارة الإسلامية؛ مثلما أخطأ غيره عندما تصور أن الإسلام سينهار بعد إلغاء أتاتورك الخلافة الإسلامية»([[46]](#footnote-46)).

\* \*

وفي نفس الشهر - أكتوبر 1997 - الذي عقدت فيه تلك الندوة عن الإسلام والغرب في العاصمة الألمانية بون، عقدت كذلك ندوة أخرى عن نفس الموضوع في العاصمة القبرصية نيقوسيا، وفيها قال صموئيل هنتنجتون: إن عدم الاستقرار السياسي والصراع القادم خلال الأعوام الخمسة والعشرين القادمة، سيكون وراء صعود قوة الإسلام والنهضة الكبرى في الصين. كذلك طرح جراهام فويلو - وهو مسئول سابق في وكالة المخابرات المركزية الأمريكية - رؤيته التي تتلخص في أن الدين في حد ذاته ليس هو سبب حدوث الصراعات.

وقال إن البترول والروح الاستعمارية الجديدة والمصالح الأمريكية في المنطقة هي سبب الصراعات، وأضاف فويلر - الذي يعمل في مؤسسة أبحاث راند الشهيرة في واشنطن - أنه قبل الثورة الإسلامية في إيران لم تسمع الولايات المتحدة عما يسمى بالخطر الإسلامي.

وقد اختتمت هذه الندوة أعمالها بتوصية تدعو إلى ضرورة توسيع نطاق الحوار بين الإسلام والغرب وخاصة في الفترة المقبلة([[47]](#footnote-47)).

\* \*

## حديث روبين كوك وزير خارجية بريطانيا:

وفي أكتوبر 1998، ألقى روبين كوك وزير الخارجية البريطانية خطابًا في أحد المراكز الإسلامية في لندن، جاء فيه:

«إن جذور ثقافتنا الإنجليزية ليست يونانية أو رومانية الأصل فحسب، بل هي إسلامية أيضًا، فالفن الإسلامي والعلوم والفلسفة الإسلامية قد ساعدت على تشكيل تطورنا. والأرقام الإسلامية ما زالت يعتمد عليها وهي التي علمتنا طريقة العد الصحيحة. ثم إن ثقافة الغرب مدينة للإسلام. ونحن نقوم حاليًا بتطوير علاقتنا مع العالم الإسلامي بعد ما سمحنا للأيام أن تباعد بيننا. البعض يقول إن الغرب بحاجة إلى عدو بعد انتهاء الحرب الباردة، وإن الإسلام هو العدو الجديد الذي سيأخذ مكان الشيوعية في الاتحاد السوفيتي. كما يقولون إن صراع الحضارات قادم لا مفر منه.

وأنا أقول أنهم مخطئون، بل مخطئون خطأ فادحًا، فنحن لسنا بحاجة إلى الإسلام كعدو، بل نحن في حاجة إليه كصديق والقرآن الكريم يقول في الآية 13 من سورة الحجرات: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾،** فالآية توضح أن نعمل معًا لتحسين التفاهم بيننا، وتوضيح تلك الصور الخاطئة والمشوهة لبعضنا البعض. وعلينا أن نتخلص كلية من مشاعر عدم الثقة التي تضر الجميع. إن الغرب مدين للإسلام بالشيء الكثير.

فالإسلام قد وضع الأسس الفكرية لمجالات عديدة مهمة وكبيرة في الحضارة الغربية، فأسس حضارتنا يعود الفضل فيها إلى الإسلام. لذلك من أكبر الأخطاء التي يمكن للغرب أن يرتكبها هو الظن بأن الثقافة الإسلامية شيء غريب عنا، فهي ليست كذلك.

فإن ثقافتينا قد تشابكتا عبر التاريخ والأجيال، وما زالتا تتلاقيان أيضًا في وقتنا الحاضر»([[48]](#footnote-48)).

\* \*

## حديث توني بلير رئيس وزراء بريطانيا:

وفي فبراير 1999 قال توني بلير رئيس وزراء بريطانيا في مقابلة صحفية مع صحيفة «ذي مسلم نيوز» التي تصدر في بريطانيا، انتقد فيها ما وصفه «بالصورة الذهنية المقلوبة» لدى البعض في بريطانيا والغرب عمومًا، التي تربط بين الإسلام والتطرف والإرهاب، مؤكدًا أن «دورنا جميعًا هو العمل على إصلاح هذه الصورة النمطية حيثما نراها أو نسمع عنها، وتوصيل رسالة مفادها أن الإسلام ليست له علاقة بالإرهاب أو التطرف...». وقال بلير أنه يختلف مع أولئك الذين يعتقدون أن العالمين الإسلامي والغربي في حالة صراع. وردًا على سؤال حول ما إذا كان يرى أن الإسلام والمسلمين يشكلان تهديدًا جديدًا للغرب بعد انهيار الشيوعية، أجاب بلير بالنفي، مؤكدًا اعتقاده بأن هذه المقارنة تعد «هراء»، وأضاف أن قراء «ذي مسلم نيوز» يعلمون أكثر من غيرهم كيف أن الإعلام يستخدم لافتة الإسلام بصورة متكررة وعشوائية في وصف التطورات التي تحدث هنا أو في أي مكان آخر والتي لا تكون لها علاقة على الإطلاق بتعاليم القرآن أو أعمال المسلم العادي ([[49]](#footnote-49)).

\* \*

## فتح ملف التطرف اليهودي:

هذا - وقد خصصت المجلة الفرنسية الأسبوعية «ليفينمان دي جيدي» الصادرة 25/2/ 1999 ملفًا خاصًا عن التطرف اليهودي في إسرائيل وفرنسا والولايات المتحدة، يكشف عدة حقائق على درجة عالية من الأهمية، منها أن خطر التطرف لم يعد حكرًا على أي دين من الأديان. فتحت عنوان «التمزق» كتب جان مارك بينامو رئيس تحرير المجلة يقول «إن مظاهر 14 فبراير في إسرائيل التي احتشد فيها 300 ألف متطرف يهودي احتجاجًا على أحكام المحكمة الدستورية العليا (التي ألغت الاستثناء الممنوح لأبناء اليهود الأرثوذكس بعدم أداء الخدمة العسكرية)، والمظاهرة المضادة التي ضمت 50 ألف علماني أثبتت أن هذا المجتمع أصابته حالة من الانقسام الحادة بين يهود متطرفين يشكلون خطرًا على مبادئ الحرية والتسامح وبين معتدلين يريدون السلام ودخول القرن المقبل بأسلحة العصر. وقال إن الانشقاق الحاد الذي يمزق اليهود اليوم في إسرائيل أصبح ينسحب وينعكس على يهود الشتات في العالم ويمزق الجاليات اليهودية في الولايات المتحدة وفرنسا وغيرها. وأشار إلى أن لندن وباريس ونيويورك أصبحت تضم أحياء يهودية (جيتو) كاملة يعيش فيها المتطرفون بشكل منفصل عن العصر والعالم. وقال إن الذين كانوا يعتقدون أن التطرف هو ظاهرة إسلامية فقط أو كاثوليكية، كانوا واهمين بل سذج، إذ أن المتعصبين اليهود قاموا - بهدوء - وخلال الـ15 عامًا الماضية بنسج شبكتهم رويدًا رويدًا ثم إحكام قبضتهم على جميع مظاهر الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في إسرائيل في مجتمعات أوروبية وأمريكية».

وتحت عنوان «اليهود وتهديد اسمه التطرف» قالت المجلة «إن عدد يهود فرنسا كانوا عند تحريرها من النازي 180 ألفًا وصلوا الآن إلى حوالي 700 ألف وذلك ليس بسبب زيادة مواليدهم وإنما بسبب الهجرة المكثفة ليهود العالم العربي خاصة شمال أفريقيا وكذلك يهود شرق أوروبا، إلى فرنسا وحول الحياة الاجتماعية للمتطرفين اليهود في قلب باريس كشفت المجلة الفرنسية عن أن الجماعات اليهودية المتطرفة أقامت ما يشبه دولة داخل الدولة في فرنسا. فقد أقاموا مدارسهم ومستشفياتهم ومعسكرات للكشافة وإذاعاتهم وصحفهم، وهي دولة لهم يرفضون أن يدخلها ليس فقط أصحاب الديانات الأخرى، بل أيضًا اليهود الرافضون لتطرفهم. ولقد تبين أن بعض الأسر اليهودية المتطرفة تعزل بناتها تمامًا عن البيئة المحيطة خوفًا من أن يكبرن ويدخلن في صداقات تنتهي بالزواج المختلط الذي يعتبره اليهود المتطرفون الخطر والعدو الأول لليهودية» ([[50]](#footnote-50)).

\* \* \*

# **خير الكلام...**

والآن نأتي إلى خير الكلام، وهو في مقولات شعوب العالم: ما قل ودل.

فباعتراف علماء الغرب وقادته ومفكريه:

* الإسلام دين أقام حضارة.
* الحضارة الإسلامية هي المنهل العذاب الذي استقت منه الحضارة الغربية.
* ومنذ نشأتها، نبذت الحضارة الغربية الديانة المسيحية بسبب العداء بين العلم والدين الذي أشعلت ناره الكنيسة الكاثوليكية.
* وفي هذا العالم المضطرب الذي يعج بالمشاكل ويواجه كل يوم بما لم يكن متوقعًا من كوارث ونكبات، ليس أمام عالمي الغرب والإسلام إلا اللقيا والحوار.

حوار الند للند، وحوار الأحرار من غير تجبر واستكبار أصدق من قال:

الحوار أو خراب الديار([[51]](#footnote-51)).

﴿**ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين**﴾**.**

# **قائمة المراجع الرئيسية**

1. الإسلام في فجر عظمته: موريس لومبارد.

]Maurice Lombard: L, Islam Dans Sa Premiere Grandeur[

ترجمة حسين العودات - منشورات وزارة الثقافة والإرشاد - دمشق.

1. الفتوحات الإسلامية في فرنسا وإيطاليا وسويسرا في القرون الثامن والتاسع والعاشر: جوزيف رينو.

]J. Renaud: Invasion Des Sarazins En France Et De France En Savoie, En Piemont Et Dans la Suisse, Pendant les Huitieme, Neuvieme Et Dixieme Siecle De Notre ere[

ترجمة د. إسماعيل العربي - دار الحداثة - بيروت.

1. العرب وأوروبا: لويس يونج.

]Lewis Young: The Arabs And Europe[

ترجمة ميشيل أزرق - دار الطليعة - بيروت.

1. شمس الله تسطع على الغرب: سيجريد هونكه.

]S. Hunke: Allahs sonne über Dem Abendland[

نشرته دار الآفاق بيروت تحت عنوان: شمس العرب تسطع على الغرب.

1. الغارة الجديدة على الإسلام: د. محمد عمارة - دار الرشاد - القاهرة.
2. الرب والله وجوجو: القس جاك مندلسون - دار المعارف - القاهرة.
3. ثورة الفكر: د. لويس عوض - مركز الأهرام للترجمة - القاهرة.

\* \*

1. - Marcel Boisard: L, Humanisme de L, Islam. Albin Michel, Paris. 1979.
2. - Bernard Lewis: L, Islam D, Hier A Aujourd, Hui. Elsevier Bordas, Paris, 1981.
3. - Roger Du Pasquier: Decouverte De L, Islam Editions Des Trois Contenents, Geneve.
4. - Herbert Fisher: L, History Of Europe, Vol. L, The Fontana Library, London, 1964.
5. - A. Renwick: The Story Of The Church, The Inter-varsity Fellowship, London, 1957.
6. - Bertrand Russel: why I am Not A Christian, George Allen & Unwin, London, 1957.
7. - David Catarivas: Israel, Vista Books, London, 1964.

\* \* \*

# فهرس

## الموضوع الصفحة

مقدمة............................................................................. 2

حضارة لا إله إلا الله................................................................ 5

مقومات الحضارة الإسلامي.......................................................... 7

1. طلب العلم فريضة.............................................................. 7
2. تحرير المرأة..................................................................... 13
3. التسامح الديني وتحرير الشعوب.................................................. 14

بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية............................................... 27

أولًا: الحضارة الإسلامية قامت على الإسلام.......................................... 27

ثانيًا: الحضارة الإسلامية عالمية التوجه والمحتوى........................................ 30

ثالثًا: الحضارة الغربية قامت على نبذ المسيحية......................................... 33

رابعا: الكنيسة تحرق العلماء وأحرار الفكر............................................ 34

خامسا: الإسلام لا يعرف الحكومة الدينية........................................... 37

## فصل المقال..................................................................... **40**

انتهاك الغرب لحقوق الإنسان....................................................... 42

1. انتهاك حقوق الإنسان الأوروبي.................................................. 42
2. انتهاك حقوق اليهود........................................................... 44
3. انتهاك حقوق المسلمين......................................................... 47
4. انتهاك حقوق شعوب الشرق والمستعمرات....................................... 51

إرهاب الدولة أو إرهاب الفرد؟!.................................................... 54

لن يعدم الحق أنصارًا من الكبراء.................................................... 55

فتح ملف التطرف اليهودي........................................................ 61

خير الكلام....................................................................... 63

قائمة المراجع الرئيسية.............................................................. 66

1. () راهبة سابقًا ثم كاتبة عالجت قضايا اجتماعية ودينية وتاريخية. ومن أحدث أعمالها كتاب هام صدر عام 1992 بعنوان: محمد: سيرة النبي. وقد ترجمه إلى العربية د. فاطمة نصر، ود. محمد عناني، وصدر عن دار: كتاب سطور. [↑](#footnote-ref-1)
2. () عدد يناير 1990 - نقلًا من: الغارة الجديدة على الإسلام - للدكتور محمد عمارة - دار الرشاد. [↑](#footnote-ref-2)
3. () الفاتيكان والإسلام: دكتورة زينب عبدالعزيز - دار القدس. [↑](#footnote-ref-3)
4. () نقله إلى العربية: الدكتور إبراهيم أحمد العدوي - ص11. [↑](#footnote-ref-4)
5. () يقول بولس في رسائله:«اختار الله جهال لعالم ليخزي الحكماء.. واختار الله أدنياء العالم والمزدرى وغير الموجود ليبطل الموجود....إن كان أحد يظن أنه حكيم بينكم في هذا الدهر، فليصر جاهلًا لكي يصير حكيمًا. لأن حكمة هذا العالم هي الجهالة عند الله، لأنه مكتوب الآخذ الحكماء بمكرهم وأيضًا الرب يعلم أفكار الحكماء أنها باطلة - الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس (1: 27 - 28، 2: 18 - 20». [↑](#footnote-ref-5)
6. () شمس العرب تسطع على الغرب:(ص369- 374، 393 - 398) [كان من اللازم أن يكون عنوان هذا الكتاب: شمس الله تسطع على الغرب، حيث أنه في أصله الألماني:

   ]ALLAHS SONNE ÜBER DEM ABENDLAND . [↑](#footnote-ref-6)
7. () العرب وأوروبا: ص9- 10. [↑](#footnote-ref-7)
8. () الإسلام في فجر عظمته: ص12. [↑](#footnote-ref-8)
9. () شمس الله تسطع على الغرب: ص467 - 471. [↑](#footnote-ref-9)
10. () الإسلام في فجر عظمته: ص9- 10. [↑](#footnote-ref-10)
11. () تاريخ العرب: تأليف الدكتور فيليب حتى وآخرين - جامعة برنستون - ص193، 231. [↑](#footnote-ref-11)
12. () الفتوحات الإسلامية في فرنسا: ص251 - 256، 264 - 265. [↑](#footnote-ref-12)
13. () العرب وأوروبا ص125. [↑](#footnote-ref-13)
14. () محمد الرسالة والرسول: ص25. [↑](#footnote-ref-14)
15. () الفتوحات الإسلامية في فرنسا: ص221 - 223. [↑](#footnote-ref-15)
16. () مجلة أكتوبر القاهرية - العدد 642 - الأحد 12 فبراير 1989. [↑](#footnote-ref-16)
17. () مؤرخ وسياسي انجليزي. عمل بعد الحرب العالمية الأولى مندوبًا مفوضًا لدى عصبة الأمم ثم عميدًا لكلية New College في جامعة أوكسفورد. [↑](#footnote-ref-17)
18. () - a new oriental civilization founded on a new oriental faith. [↑](#footnote-ref-18)
19. ()- the great age of Moslem literature and art which for four centuries. While the European mind was deep sunk in ignorance and sloth, gave the peoples of Islam the intellectual leadership of the world. [↑](#footnote-ref-19)
20. () - H. fisher: A short history of Europe, vol. 1. PP. 150 - 1, 154 [↑](#footnote-ref-20)
21. () مستشرق إنجليزي. أستاذ لشرق الأدنى بجامعة برنستون وأستاذ زائر في جامعات كاليفورنيا وانديانا عضو في عدد من الجمعيات العلمية العالمية. [↑](#footnote-ref-21)
22. () - La Fondation ďune nouvelle religion, ďun nouvel Empire, ďune nouvelle civilization. [↑](#footnote-ref-22)
23. () - Bernard Lewis: Ľ Islam ďhier A augourďhui, pp. g - 11, 16, 20. [↑](#footnote-ref-23)
24. () أستاذ جامعة سويسري. عمل ممثلًا للجنة الدولية للصليب الأحمر في عدة دول إسلامية ومديرًا مشاركًا في برامج التثقيف الدبلوماسي بالمعهد الجامعي للدراسات الدولية العليا بجنيف ومندوبًا مفوضًا أوروبيًا بالجمعية الثقافية الدولية المعروفة باسم «الإسلام والغرب». [↑](#footnote-ref-24)
25. () - Ľhistoire montre une constante absolu dans la civilisation musulmane, qui a été ďemblée et demeure encore éminęment axeé sur dieu. [↑](#footnote-ref-25)
26. () - Dieu Demeure ainsi la référence prencipale de la penseé musulmane, aussi bien théologique que juridique et piolitique. [↑](#footnote-ref-26)
27. () - Marcel Boisard: L' Humanisme de L' Islam, pp. 27 - 38. [↑](#footnote-ref-27)
28. () Le message coranique et Ľenseignement du prophéte s'avérent essentiellement progressistes. Ces caractéristiques expliquent le développement extraodinairement rapide de ĽIslam au cours des premiers siécles de son histoire. [↑](#footnote-ref-28)
29. () - ibid., pp. 62 - 72. [↑](#footnote-ref-29)
30. () - ibid., pp. 62 - 72. [↑](#footnote-ref-30)
31. () كاتب وصحفي سويسري. درس الإسلام واعتنقه وكذلك أسلمت زوجته الهولندية. [↑](#footnote-ref-31)
32. () R. du pasquier: Découverte de L, Islam, pp. 5 - 24. [↑](#footnote-ref-32)
33. () Bertrand Russel: why I am not A Christian, pp. 15 - 28. [↑](#footnote-ref-33)
34. () M. Boisard: Ľhumanisme de l'Islam, pp. 143- 150, 332. [↑](#footnote-ref-34)
35. () - B. Lewis: l'Islam, pp. 9 - 20. [↑](#footnote-ref-35)
36. () - S. Hunke: Allahs Sonne Uber dem Abendland, p 305. [↑](#footnote-ref-36)
37. () نقلًا عن: الغارة الجديدة على الإسلام - ص17. [↑](#footnote-ref-37)
38. () المرجع السابق - ص3. [↑](#footnote-ref-38)
39. ()- S. Neil: A History of Christian Missions, pp. 79 - 80; 105; 93 - 95. [↑](#footnote-ref-39)
40. )) - David catarivas: ISRAEL. pp. 177 - 178. [↑](#footnote-ref-40)
41. () الرب والله وجوجو: جاك مندلسون، ص29، 199. [↑](#footnote-ref-41)
42. ()- S. Neil: A History of Christian Missions, pp. 259, 202. [↑](#footnote-ref-42)
43. () الغارة الجديدة على الإسلام - ص34. [↑](#footnote-ref-43)
44. () وثائق المؤتمر التاسع للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة (1418هـ 1997م، وموضوعه: الإسلام والغرب. [↑](#footnote-ref-44)
45. () صحيفة الشرق الأوسط: 23/ 12/ 1996. [↑](#footnote-ref-45)
46. () صحيفة الشعب: 31/ 10/ 1997. [↑](#footnote-ref-46)
47. () صحيفة الأهرام: 1/ 11/ 1997. [↑](#footnote-ref-47)
48. () صحيفة الأهرام 16/ 10/ 1998. [↑](#footnote-ref-48)
49. () صحيفة الأهرام: 24/ 2/ 1999. [↑](#footnote-ref-49)
50. () صحيفة الأهرام: 27/ 2/ 1999. [↑](#footnote-ref-50)
51. () اتخذها الكاتب الألمعي الراحل:جلال كشك، عنوانًا لأحد كتبه الذي أصدرته مكتبة التراث الإسلامي بالقاهرة. [↑](#footnote-ref-51)